دراسة المستشرق كستر عن مكة

مكـــــة

وَصِلَتُها بالقَبائِلِ العربية

ترجمة: الدكتور يحيى الجبوري

ترجمة المؤلف

لقد كان للمستشرقين – ولا سيما أولئك الذين درسوا التراث العربي الإسلامي، بدافع علمي بحت، لم تَشُبْهُ الأغراض – فضل صون التراث ودرسه وتحقيقه ونشره، وترجمته، والتأليف فيه، وقد درسوا تراثنا دراسة خبير متمكن على وفق أسس علمية، فقد رصدوا نشأته وتطوره، وتأثره وتأثيره، وموازنته بغيره.

والمؤلف كستر أحد أولئك المستشرقين المحدثين، الذين وقفوا جهدهم على خدمة العربية وتراثها، في مجالات مختلفة، تاريخية واجتماعية، ودينية وأدبية ولغوية، وعلى الرغم من كثرة التنقير عن آثاره، لم أقف على ترجمة له حاله كحال كثرة المستشرقين المحدثين، فالعقيقي في موسوعته عن المستشرقين لم يتناول أحداً من المستشرقين المحدثين، بل كان عمله منصرفاً إلى أوائل المستشرقين وجلهم في عداد التاريخ، وقد ألف كتابه منذ مدة طويلة.

لقد كتب كستر آثاره بالإنكليزية والعربية، فله – فيما بلغه علمي – تسعة آثار بالإنكليزية، نشرها في المجلات الاستشراقية، وكتاب واحد في اللغة العربية، ذلك هو تحقيق كتاب (آداب الصحبة وحسن العشرة)، لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، ظهر سنة ١٩٥٤.

أما باللغة الإنكليزية، فأهم أبحاثه هذان البحثان المترجمان عن الحيرة ومكة، وقد نشر الأول (الحيرة بعض الملاحظات عن علاقاتها بالقبائل العربية) في سنة ١٩٦٨[١]، والثاني (مكة وتميم مظاهر من علاقاتهم) سنة ١٩٦٥[٢].

والملاحظ أن أبحاثه كلها تنصرف إلى العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ففي مجال الدراسات الإسلامية.

نشر بحثاً عن كتاب الخراج ليحيى بن آدم، فيما يخص الأحاديث التي لها صلة بالجانب الإجتماعي والسياسي التي تضمنها كتاب الخراج، وقد نشره في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، التي تصدر في مدينة ليدن سنة ١٩٦٠م[٣].

وله دراسة حول أوائل الحديث النبوي، نشرها في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن سنة ١٩٧٠[٤].

---

[١] Al – Hira, some notes on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.

[٢] Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social History of the Orient. V. 8(1965) Leiden.

[٣] The Social and political implications of three traditions in the Kitab al- Kaharadj of Yahya b. Adam. J. Econ. Coc. Hist orient V.3(1960).

[٤] Abag of Meat, A study of an Early Hadith, V. 33 (1970) BSOAS.

ودراسة إسلامية أخرى حول تحقيق معنى كلمة (التَّحنُّث)، نشرها في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن سنة ١٩٦٨م(٥).

ودراسة أخرى في المجال الإسلامي نفسه حول سوق النبي، نشرها في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق سنة ١٩٦٥م(٦).

أما في المجال الأدبي، فله بحثان عن الشعر، الأول ملاحظات حول بعض الأشعار العربية، نشره في مجلة الدراسات الشرقية التي تصدر بإيطاليا سنة ١٩٦٦(٧).

أما البحث الثاني، فحول القصائد السبع وتصنيف المعلقات، نشره في المجلة السابقة سنة ١٩٦٩(٨).

وشارك في ميدان المخطوطات أيضاً، فعرف بثلاث مخطوطات عربية في المتحف البريطاني، وبَيَّنَ قيمتها العلمية والتاريخية، نشر ذلك في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن سنة ١٩٦٠(٩).

---

(٥)Al Tahannuth an inquiry into the meaning of a term. BSOAS V. 31 (1968).

(٦)The market of the prophet. J. of the Economic and Social History of the Oeient, V. 8 (1965) Lieden.

(٧)Notes on some Arabic Verses, Rivista degli studi Orientali (1966).

(٨)The seven Odes: some notes on the Compilation of the mu – allagat, Rivista degli studi oriental, V. 44 (1969).

هذه أهم أعمال البروفيسور كستر التي استطعت أن أقف عليها، ويتضح من خلالها الجهد الكبير في العناية بالتراث العربي الإسلامي، وإبراز معالم الأدب القديم والوقوف على أهم جوانبه الحضارية، وقد رأيت فيما قرأت من أبحاث المؤلف، دقة في فهم النصوص العربية، وشمولاً في النظرة وتقصيا للموضوع الذي يبحث فيه، وأمانة في نقل المعلومات، وإنصافاً في الحكم، وجهداً واضحاً، وصبراً على مشاكل البحث، ولذلك كله فقد رأيت في نقل هذا الكتاب إلى العربية فائدة كبيرة.

---

(٩) Notes and Communications notes on three Arabic Manuscripts in the British Museum, BSOAS. V. 23 (1960).

مكة وتميم

(مظاهر من علاقاتهم)(*)

لتاريخ تميم في العصر الجاهلي أهمية خاص والمعلومات حول تميم في المصادر العربية تشير بوضوح إلى العلاقات الوثيقة بين زعماء تميم وملوك الحيرة.

وهنالك مركز آخر ارتبطت به تميم بعلائق وثيقة، ذلك المركز هو مكة، ومن الممكن القول إن تميماً لعبت دوراً ذا أهمية في تاريخ مكة في العصر الجاهلي، وكانت تساهم كثيراً في دعم نفوذ هذه المدينة في المجتمع القبلي لشبه الجزيرة العربية.

(*)Macca and Tamim (Aspects of their relations). By: M.J. Kister.
Journal of the Economic and Social History of the Orient.
Vol. VIII/ PART II/ 1965. Leiden.

إن تمحيص العلاقات بين مكة وتميم، ربما يلقي بعض الضوء على أصول الحكم القبلي بقيادة مكة، وعلى السياسة المكية مع القبائل المحيطة بها.

إن تقصي هذه المعلومات ربما يدعو إلى إعادة النظر في بعض الآراء المتعلقة بصلة مكة بالقبائل، وتفسير بعض الأحداث التي حصلت في حقبة الصراع بين النبي ومكة.

إن بحث العلاقات بين مكة وتميم، يمكن أن يمهد له ببعض الملاحظات حول علاقة القبائل العربية بالحيرة في أواخر القرن السادس.

كان النصف الثاني من القرن السادس، عصر تبدل أساسي في العلاقات بين القبائل في شمال شرق الجزيرة، وبين الحيرة، وكان لانكسار قوات الحيرة في المعارك التي تخوضها هذه القبائل، أن قوض هيبة حكام الحيرة في نظر هذه القبائل.

وقد أدى منح امتياز حراسة القوافل لبعض رؤساء العشائر، إلى إثارة الحسد والخلاف بين القبائل، وقاد إلى التصادم فيما بينهم، ثم قامت القبائل الساخطة بالثورة ضد الحيرة، ولهذا كثرت الإغارة على قوافل الحكام، وصارت طرق التجارة غير آمنة، لقد بدأ حكام الحيرة يفقدون السيطرة على الطرق التجارية، وتتضاءل هيبتهم.

إن ضعف أمراء الحيرة وأسيادهم الفرس كان أمراً واضحاً، فكثيراً ما كانت تنهزم الحاميات الفارسية والقبائل الموالية لهم في المعارك التي تخوضها ضد القبائل، لقد سجل البلاذري حال من هذا القبيل:

(وأغارت بكر بن وائل على بني عمرو بن تميم يوم الصليب، ومعهم ناس من الأساورة، فهزمتهم بنو عمرو، وقتل طريف رأس الأساورة فقال:

ولولا طرادى بالصليب لسوقت   نساء أناس بين درنا وبارق[1]

وكانت المعدات التي تجهز من قبل الفرس للقبائل الموالية، تأخذها القبائل المنتصرة والمعادية غنائم وأسلابا[2].

لقد صار أمراء الحيرة يشعرون بأضمحلال الإمبراطورية الفارسية، وتدهورها في أواخر القرن السادس، ذلك أن النعمان آخر أمراء الحيرة بدأ يتعاطف مع العرب، ومن المحتمل أنه صار يوثق العلائق مع زعماء القبائل محاولة منه لإيجاد أسباب مشتركة مع القبائل القوية، وفي رواية – غير راجحة – نسبت إلى النعمان قوله: (إنما أنا رجل

---

[1] البلاذري: أنساب الأشراف مخطوط الورقة ١٠٥ ب.

[2] أنظر النقائض ص ٥٨١: وكانت بكر تحت يد كسرى وفارس، قال: فكانوا يقومونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر.... الخ.

منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم.... ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدث نفسه)[٣].

يؤكد نولدكه - وهو على حق - حقيقة أن أمراء لخم صاروا أكثر استقلالاً في موقفهم تجاه كسرى[٤].ويستشهد روثستين بنص من الدينوري، ذلك أن كسرى قال في محاورة: إنه إنما قتل النعمان، لأن النعمان وأسرته وحدوا سياستهم وأهدافهم مع العرب[٥].ووفقاً لرواية سجلها أبو البقاء، أن كسرى عزم بعد موت المنذر، على إرسال حاكم فارسي، مع (١٢٠٠٠) إثني عشر ألف أسواري إلى الحيرة.ثم غيّر رأيه، وقرّر أن يعيّن أحد أطفال المنذر، طبقاً لمشورة عدي بن زيد[٦].

إن الشعر الجاهلي يعكس بوضوح مقاومة القبائل للحكم الأجنبي، فالشعراء يمتدحون قبائلهم بأنهم حاربوا الملوك[٧] وقتلوهم[٨].

---

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/١٦٩.

(٤) T.Noldeke: Geschichte der prser u. Araber p. 332. N.I.

(٥)Rothstein: Die Dynastie der Lahmiden pp. 116-117.

(٦) أبو البقاء: مناقب مخطوط الورقة ١٠٦ أ.

(٧) أنظر:

Levi della vida: pre-Islamic Arabia. (The Arab HERITAGE P. 50).

(٨) انظر الزبير بن بكار: نسب قريش ١/٢٦:

القاتلين من المناذر سبعة   في الكهف فوق وسائد الريحان

قالها في مدح بني حرملة، وأراد بالمناذرة، النعمان بن المنذر، ورهطه.

وكان لابد للنعمان من أن يشعر بتقوّض الإمبراطورية الفارسية، وتزايد قوة القبائل العربية، ولا بد من أن يكون قد اختط لنفسه سياسة جديدة لا تنسجم والمصالح الفارسية، وينبغي أن يكون هناك شيء من الحقيقة في شكوك كسرى، ويبدو أن الأسرة اللخمية – في نظر كسرى – قد ألغيت لأنها لم تعد أهلا للثقة.فلم يعد بمستطاع اللخميين تأمين طرق التجارة، وفشلوا في منع القبائل العربية من غزو ممتلكات الإمبراطورية الفارسية.

يرى نولدكه أن إلغاء حكم الأسرة اللخمية، يسّر للقبائل العربية أن تغير على ممتلكات الحيرة[٩].

ويعتبر بروكلمان أن اندحار القوات الفارسية في ذي قار كان نتيجة لإلغاء حكم هذه الأسرة[١٠].

أما ليفي دلا فيدا فيفترض أنه: (مع سقوط الدولة التي كانت حاجزاً بين العرب والفرس، صار الباب مفتوحاً للغارات العربية)[١١].

ولكن الباب في الحقيقة كان مفتوحاً للغارات العربية بسبب انحطاط الامبراطورية الفارسية، وارتفاع قوة القبائل العربية، إن الحاميات الفارسية لم يكن بمقدورها منع هجمات القبائل، وإن الجيوش الفارسية كانت قد هزمت أمام جيوش القبائل العربية.

---

(٩) نولدكه: المرجع السابق والصفحة.

(١٠) c.Brockelmann: History of the Islamic peoples p. 8.

(١١) ليفي دلا فيدا: المرجع السابق ص ٥١.

إن القبائل العربية، بسبب من خيبة أملها بسياسة الحيرة وسياسة فارس، بالإضافة إلى وعيها بضعف الدولة الموالية (الحيرة)، شعرت بضعف الولاء لهذه الدولة، وبدأت تتطلع إلى كيان سياسي ذي قيادة كفوءة خاص بها، وقد خلق هذا فكرة تحالف سياسي يرتكز على المساواة والمصالح المشتركة، ذلك هو التحالف السياسي الموحد لمكة.

إن الروايات المتعلقة بحقبة توطيد قوة مكة، مع أنها شحيحة، فهي تعطينا فكرة أولية لظهور هذه المرحلة.

ففي رواية مجملة لمحمد بن سلام(١٢) تقدم تمهيداً للقضية، ذلك أن قريشاً كانوا تجاراً، ولم تكن تجارتهم في أي حال لتتجاوز حدود مكة، وكان التجار الغرباء يجلبون تجارتهم إلى مكة، يبيعون بضائعهم لقاطني المدينة، والقبائل المجاورة، وهكذا كانت تجارتهم، إلى أن ذهب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، ووطأ أرض قيصر، وصار هاشم يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة ثريد، ويطعم جيرانه، وبذلك سُمِّيَ هاشماً، لأنه هشم الخبز وجعله ثريدا(١٣) (كان اسمه عمراً)، وكان قيصر الروم يدعوه إلى بلاطه، وصار هاشم يتردد عليه، وحين أدرك أنه نال رضاه،

---

(١٢) القالي: ذيل الأمالي ص ٢٠٠، الكلاعي: الاكتفاء ١/٢٠٧-٢٠٩

Hamidullah: Al- ilaf ou les rapports economic diplomatiques de la Mecque pre Islamique (Melanges Louis Massignon, II, 293 seq), idem : Muslim conduct of state 102.

ظافر القاسمي: الإيلاف والمعونات غير المشروطة، مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق ٣٤ ص٢٤٣-٢٥٥.

(١٣) للتفسيرات الأخرى لهذا اللقب أنظر كايتاني:

Caetani, Annali I, 109-110 (90).

سأله أن يعطي تجار مكة كتاباً يؤمن فيه تجارتهم وأنفسهم، فاستجاب الإمبراطور لطلبه، فضمن لتجار مكة (صك الأمان) عند زيارتهم سورية، فكان تجار مكة يجلبون الملابس والجلود من الحجاز، فهي أرخص لسكان الشام.وعند رجوع هاشم - في طريقه إلى مكة - لقي رؤساء القبائل التي مرّ بها، فأخذ عهد الأمان (الإيلاف)، دون أن يعقد معهم حلفاً.كان تجار مكة يحملون البضائع إلى الشام، ويشاركون العرب في التجارة، بأن يأخذوا بضائعهم، فهم يتاجرون بها ثم يعطونهم أرباحاً مع رؤوس أموالهم(١٤).

لقد ذهب هاشم نفسه في تجارة مع تجار مكة، وطبقاً للاتفاق مع القبائل إذ قاد تجار مكة إلى الشام، وأحلّهم في قراها، وقد توفي هاشم في هذه الرحلة في مدينة غزة.

كما ذهب المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، وحصل من حكام اليمن على ترخيص مماثل لما حصله هاشم لتجار قريش، وحصل على الإيلاف من رؤساء القبائل، وقد توفي في ردمان.وذهب عبد شمس بن

---

(١٤) يترجم محمد حميد الله: وعلى أن قريشاً تحمل لهم (هكذا من نص المنمق، وعند القالي (اليهم) بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم كالآتي:

"et leur vermettraient la prix realisee sons pour autant les charger des pais au deduire des commisions"

لقد جعل الفقرة في الانكليزية تصبح كالآتي:

"promised.. to carry their goods as agents without commision for commercial purposes or otherwise concluded trea – ties of friendship.."

وهذه الترجمة تبدو غير مضبوطة.

عبد مناف إلى الحبشة، وفي طريقه حصل على الإيلاف.وكذلك حصل نوفل أصغر الأخوة على ترخيص من كسرى إمبراطور الفرس والإيلاف وتوفي في سلمان.

لقد طورت قريش بعد ذلك تجارتها، وزادت ثرواتها، وكان ذلك بفضل بني عبد مناف، الذين تدين لهم قريش بالفضل في الجاهلية.

يدون ابن سعد قصة هاشم الذي حصل على الإيلاف وعلى رخص الأمان من لدن الحاكمين[١٥]، وقد سمى القالي تلك الرخص (عهداً) أو (أمانا) ويستعمل ابن سعد صيغة (حلف)، كما يستعمل محمد بن حبيب في فصل الإيلاف كلمة (إيلاف) للرخص والاتفاقات مع رؤساء القبائل[١٦].

ويطلق البلاذري في ذكره للإيلاف تعبير (عصام) على رخص الحكام.

فقد قيل إن نوفل بن عبد مناف كان قد حصل على (عصام) من ملوك العراق[١٧].يستعمل الطبري الكلمتين (عصام) و (حبل) للدلالة

---

[١٥] ابن سعد: الطبقات ١/٧٥-٨٠ سيقت الرواية عن عبد الله بن نوفل بن الحارث (أنظر ابن حجر: الإصابة رقم ٤٩٩٤) يقول: أن هاشماً كتب إلى النجاشي (ملك الحبشة) يسأله أن يمنح تجار مكة أمانا، إن القاعدة الاقتصادية للإيلاف تسجل هنا كالآتي: (على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق) ص ٧٨ تساعد هذه العبارة على فهم الفقرة التي نوقشت في الملاحظة السابقة.

[١٦] محمد بن حبيب: المحبر ص ١٦٢ وما بعدها.

[١٧] البلاذري: أنساب ١/٥٩، أنظر في كلمة (عصم) الأعشى: الديوان ص ٢٩.

على الرخصة.قال: حصل نوفل على (الحبل) من الأكاسرة، وكانوا (أي تجار قريش) يترددون على العراق وفارس[١٨].

ويذكر الثعالبي أن هاشماً أخذ الإيلاف من الأعداء[١٩].

إن عبارة أخذ الإيلاف من الأعداء سجلها الثعالبي في موضع آخر، وهي تختلف كلياً عن الروايات المذكورة، ولابد من أن تكون قد حرفت عن الروايات السابقة حول الإيلاف[٢٠].

كانت قريش – كما يقول الثعالبي – لا تفارق مكة، ولا تتعامل إلا مع التجار الذين يترددون على سوق عكاظ وذي المجاز، خلال الأشهر

---

(١٨) الطبري: تاريخ ٢/١٢، قارن ابن ظفر الصقلي: أنباء نجباء الأبناء. ط مصطفى القباني، القاهرة بلا تاريخ ص ٦٦–٦٨، العصامي: سمط النجوم العوالي، ط القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١/٢١٤ –٢١٥، سير الملوك، مخطوط المتحف البريطاني رقم ٢٣٢٩٨ الورقة ١٧٤ أ.

(١٩) الثعالبي: لطائف المعارف ص ٥ دي جونج ١٨٦٧ م.

(٢٠) الثعالبي: ثمار القلوب ص ٨٩ وما بعدها، إن حق الإيلاف لقريش وامتيازها به ذكر في أبيات لمسور بن هند:

زعمتم أن اخوتكم قريش   لهم ألف وليس لكم الاف

أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً   وقد جاءت بنو أسد وخافوا

انظر الحماسة (شرح المرزوقي ط هارون) ص ١٤٤٩ رقم ٦٠٥ وقارن البلاذري: أنساب ١/٩٨ (قول نتيلة حول ولدها ضرار بن عبد المطلب):

سن لفهر سنة الإيلاف.

وانظر الهمداني: الاكليل ١/٢ مخطوط الورقة ٢٦ أ:

فلا تقصوا معدا إن فيها   آلاف الله والأمر السمين.

الحرم، ويأتون مكة، وكان سبب ذلك أن قريشاً متمسكة بدينها، محبة لحرمها وبيتها، وكانت تخدم حجاج مكة، وفي ذلك نفع لها.

وكان هاشم أول من ذهب خارجاً إلى الشام، وزار الملوك وقام برحلات بعيدة، واجتاز الأعداء (أي القبائل المعادية)، وأخذ منهم الإيلاف المذكور (في القرآن).

فيذكر الثعالبي رحلتين لهاشم (إلى العباهلة في اليمن وإلى اليكسوم في الحبشة في الشتاء، وإلى الشام وبيزنطة في الصيف) ويقول حول الإيلاف: لقد أخذ الإيلاف من رؤساء القبائل والزعماء لسببين: بسبب أهل (الحرم)، والناس الذين لا يأمنون من هجمات (ذؤبان العرب) ولصوص البدو، ورجال الغزو، والغارقين في أعمال الثأر المتأصلة، وبسبب تلك القبائل التي لا تحترم حرمة الحرم والأشهر الحرم، مثل طيء وخثعم وقضاعة، بينما تحج القبائل الأخرى إلى الكعبة، وتحترم البيت.إن الإيلاف يعني كما يقول الثعالبي: مبلغاً من المال، يمنح من قبل هاشم، إلى رؤساء القبائل كأرباح، ويتعهد هاشم بنقل بضائعهم سوية مع بضائعه، ويسوق إبلهم مع إبله، كي يريحهم من مشاق الرحلة ويريح قريشاً من خوف الأعداء، وكان في ذلك فائدة للجانبين: فقد ربح المقيمون (البدو)، وأمن المسافرون (القرشيون) وتحسنت بذلك أحوال قريش[٢١].

---

[٢١] هناك رواية ذات مغزى مقتبسة من كتاب الكمائم (مفقود) جاءت عن أبي سعيد في كتابه نشوة الطرب (مخطوطة توبنجن الورقة ٩٧)، قال صاحب الكمائم: (كانت قريش قد

يذكر ابن أبي الحديد روايتين[٢٢]، واحدة عن القالي والأخرى عن الجاحظ في رسالته (فضل هاشم على عبد شمس)[٢٣]، توضح رواية الجاحظ المشاركة في الأرباح بين هاشم ورؤساء القبائل: (وشارك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربحا...).

ويذكر الجاحظ رواية أخرى حول الإيلاف يقول فيها: إن هاشماً فرض ضرائب على رؤساء القبائل، وقد استطاع هاشم بهذه المبالغ المجموعة، أن ينظم الدفاع عن أهل مكة، ضد اللصوص والقبائل التي ما كانت لتحترم قدسية مكة[٢٤].

وينقل اليعقوبي[٢٥] القصة المذكورة سابقاً حول الأخوة الأربعة (هاشم واخوته)، الذين حصلوا على الإيلاف، وتتضمن الرواية مع ذلك عبارة تعطي إشارة تعين على تقدير مدى فعالية إتفاقات الإيلاف التي أنجزها هاشم.

انقطعت عند البيت وكانت العرب التي حولها تمنعهم من الخروج في طلب المعاش ولم يكن لهم عيش إلا ما يأتي الموسم أيام الحج، فلما نشأ بنو عبد مناف المذكورون أخذوا العرب بالسياسة والمهاداة إلى أن انقادوا لهم وفتحوا الطريق لسفارهم حيث شاءوا فاخترعوا الإيلاف الذي ذكره الله عزوجل).

(٢٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٣/٤٥٤/ ٤٥٨.

(٢٣) الجاحظ: رسائل ص ٧٠ ط السندوبي.

(٢٤) الجاحظ: المصدر السابق والصفحة.

(٢٥) اليعقوبي: تاريخ ١/٢٧٨.

يقول اليعقوبي: كانت قريش بعد موت هاشم خائفة من تسلط البدو عليها، وهذه العبارة تدل على أن اتفاقيات الإيلاف لم تكن في الواقع قد نفذت، وقد خشيت قريش من أن بعض القبائل ربما تمتنع من تنفيذ بنودها.

إلا أن نشاط أبناء عبد مناف والأرباح الممنوحة للرؤساء جعل الرؤساء يلتزمون بتعهداتهم حول الإيلاف.

إن التفسير المعجمي لكلمة (الإيلاف) نوقش من قبل بيركلاند، فأرجع الكلمة إلى كونها (حماية)، (حلف يضمن الامن) الخ[٢٦]، ويرى بيركلاند أن معنى (الحماية Protection) لم يرد في تفاسير القرآن عدا تفسير الآلوسي، وهو على كل حال يستند في تفسيره إلى أبي حيّان[٢٧]، يستشهد أبو حيّان برأي النقّاش، بأنه كانت هناك أربع رحلات (أي أنهم يرسلون أربع قوافل: إلى الشام، والحبشة، واليمن، وفارس)، ولا يوافق أبو حيان على تفنيد ابن عطية، ويستشهد في مناقشته بقصة أبناء عبد مناف الأربعة، الذين حصلوا على الإيلاف، ويذكر أبو حيّان شرح الأزهري لكلمة (إيلاف)، ويستشهد بأبيات مطرود بن كعب (التي ترجمت من قبل بيركلاند[٢٨]).

---

[٢٦] H. Birkeland: The Lord Guideth p. 106-107.

قارن ذلك بالزمخشري: الفائق ١/ ٤٠.

[٢٧] أبو حيان: البحر المحيط ٨/٥١٥ سورة قريش.

[٢٨] بيركلاند: المرجع السابق ص ١١٩، وانظر القالي: أمالي ١/ ٢٤١، البكري: السمط ص ٥٤٧-٥٥٠، الشريف المرتضى: أمالي ٤/١٧٨-١٧٩.

وجاء شرح الأزهري أيضاً في تعليق معاهد التنصيص على أبيات مساور بن هند[٢٩]: (شبه الاجارة بالخفارة).

وينبغي أن يقال إن الروايات التي وردت حوال الإيلاف، تجمل الظواهر الأساسية للتغييرات في مكة، التي كانت مركزاً صغيراً لتوزيع البضائع على القبائل البدوية المجاورة للمدينة، وقد اكتسبت مكة موقعاً ممتازاً كمركز لتجارة المرور (Transit trade).

وكان تجار مكة يحملون البضائع أيضاً إلى سورية والعراق واليمن وهذه التجارة المستندة إلى أحلاف الإيلاف كانت عملية مشتركة بين أسر قريش بزعامة أسرة عبد مناف.

إن الأحلاف المعقودة مع القبائل على مبدأ الربح التجاري لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، إنها لم تكن أحلافاً مع التزامات في المساعدة المتبادلة والحماية، ولم تكن تلزم القبائل بحماية قوافل قريش، مثلما كانت حال القبائل في علاقتها بقوافل الحيرة.

إن اتفاقيات الإيلاف كانت قد أقيمت على أساس المقاسمة في الأرباح مع رؤساء القبائل، ومن الواضح استخدام رجال القبائل أيضاً كحراس للقوافل.

---

[٢٩] العباسي: معاهد التنصيص ١/ ٩٥.

بإمكاننا أن نفترض أن الإيلاف ينبغي أن يتضمن فقرة بخصوص مراعاة الأشهر الحرم، أي التعهد بالسلم خلال هذه الأشهر، واحترام قداسة مكة (أو بالأحرى حرمة مكة).

وكان الإيلاف يعني في الحقيقة القبول بـ (نظام السلم المكي) (Pax Meccana) من قبل القبائل، والإعتراف بمكانة المكيين وتجارة مكة، وإقامة التعاون الاقتصادي المستند إلى المصلحة العامة، وذلك يوضح تلك الفقرة المهمة في رواية الثعالبي حول الإيلاف مع القبائل التي كانت معادية حتى ذلك الحين.

يناقش بيركلاند الخلفية التاريخية للآيتين ١-٢ من سورة قريش ١٠٦، ويؤكد أهمية عهود الإيلاف فيقول: (إن براعة قريش المالية وحيازتهم الأماكن المقدسة، جعلهم أسياد الاقتصاد في غربي الجزيرة حوالي مائة سنة قبل النبي)[٣٠]، ومن الممكن تعميم قول بيركلاند هذا ليشمل شرقي الجزيرة أيضاً، لقد كان حجم التجارة القرشية واسعاً جداً[٣١].

ومن الممكن تصور أن رؤساء القبائل كانوا يفضلون الاشتراك في التجارة مع تجار مكة، فقد كانت أرباحهم أكثر استقراراً في تعاونهم مع

---

[٣٠] بيركلاند: المصدر السابق ص ١٢٢ وما بعدها.

[٣١] أنظر:

E.R.Wolf: The Social organization of Macca and origins of Islam, Southwstern Journal of Anthro – pology 1951, pp. 330-337.

قريش، وكان في مقدورهم إقامة علاقات وطيدة معهم، وقد فعلوا ذلك حقاً، فقد كان يرحب بهم في مكة، ويستطيعون دخولها من غير خوف، على خلاف موقفهم من الحيرة فقد كان موقف الذليل الخاضع، أما في مكة فهم أنداد يستطيعون التفاوض على قدم المساواة.

إن تأثير مكة التجاري كان واضحاً، وبإمكاننا أن نستنتج ذلك من قصة سجلها اليعقوبي[٣٢]: ذلك أن رجلاً من كلب كان في خدمة امرأة كلبية (تاجرة) على مشارف الشام، وقد شاهد وصول قافلة مكية إلى الشام، فيصف بالتفصيل شخصية هاشم ومهابته وشرفه وعزة نفسه وسخاءه، والتبجيل الذي يظهره له رؤساء مكة ثم يقول: (والله إن هذه هي العظمة الحقيقة وليست عظمة آل جفنة).

إنها عبارة جديرة بالملاحظة، فقد شهد هذا البدوي مجد الزعيم القرشي، فعاداته وسيرته وسجاياه كانت أكثر قرباً إلى نفس البدوي من عزلة حكام آل جفنة، إنها عبارة صيغت لتكون تمهيداً للمستقبل.

هناك رواية جديرة بالملاحظة ربما تلقى بعض الضوء على الوضع في مكة في زمن هاشم، هذه الرواية نقلها السيوطي عن الموفقيات للزبير بن بكار[٣٣]، وقد – رويت عن عمر بن عبد العزيز، وذلك أن أشراف

---

[٣٢] اليعقوبي: تاريخ ١/٢٨٠، وانظر ابن كثير: البداية ٢/٣١٦-٣١٧، سير الملوك مخطوط الورقة ١٧٣ ب.

[٣٣] السيوطي: الدر المنثور ٦/٣٩٧ سورة قريش ١٠٦.

مكة كانوا يزاولون (الاعتفاد)[٣٤]، والاحتفاد – كما يوضح السيوطي، أن أهل البيت منهم كانوا إذا خسروا أموالهم، يخرجون إلى الصحاري، فيضربون على أنفسهم الأخبية، ثم يتناوبون فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم الناس بورطتهم.

هكذا كانت تجري الأمور حتى نشأ هاشم، فلما نبل وعظم قدره في قومه، جمع قريشاً وقال لهم:(يا معشر قريش إن العز مع الكثرة، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً، وإن هذا الاعتقاد قد أتى على كثير منكم)، ثم بسط لهم رأيه الذي قبلته قريش، وذلك أن يلحق بكل رجل غني رجلاً فقيراً، فالفقير يعين الغني في رحلاته مع القوافل، و (يعيش في ظله بفضلة أمواله)، وكان ذلك قطعاً للإعتفاد، فألف هاشم بين الناس.

فلما كان من أمر الفيل وأصحابه ما كان، وأنزل الله ما أنزل، وكان ذلك مفتاح النبوة، وأول عز قريش، حتى هابهم الناس، وقالوا أهل الله والله معهم، وكان مولد النبي في ذلك العام، فلما بعث الله النبي كان فيما أنزل عليه يعرف قومه وما صنع لهم وما نصرهم من الفيل أصحابه: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)[٣٥]، ثم قال: ولم فعلت ذلك يا محمد بقومك وهم يومئذ أهل عبادة أوثان، فقال لهم (لإيلاف قريش)[٣٦]، أي لتراحمهم وتواصلهم، كانوا على شرك وكان الذي أمنهم

---

[٣٤] في الأصل (احتفاد) ولابد من أنها خطأ.

[٣٥] سورة الفيل ١٠٥.

[٣٦] سورة قريش: ١٠٦.

منه من الخوف خوف الفيل وأصحابه، و (أطعمهم من جوع) يعني جوع الاعتفاد.

إن الرواية تميل إلى تفسير (لإيلاف قريش) على أنها تعني (التراحم قريش وتواصلهم)، إلا أن هذه القصة نوعاً ما غير مترابطة مع تفسير الآية، إنها تبدو في الحقيقة وكأنها تعكس الحال قبل الإيلاف.

لدى الزبير بن بكار معلومات واضحة عن حال مكة الاجتماعية والاقتصادية في العصور الجاهلية، وروايته ربما تتضمن مقداراً جيداً من الصدق، تشير إلى أن القوافل قبل عمل هاشم للإيلاف كانت تبعث من قبل الأفراد، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة، فالتجار معرضون لخسارة كل شيء في حال هجوم قطاع الطرق أو القبائل المعادية، والتاجر الذي استثمر كل رأس ماله ربما خسر كل شيء، فكان الإيلاف هو الذي جعل الرحلات أمينة.وكان رأي هاشم في ضم الفقير لمشروع القوافل رأياً جريئاً، إنه أراد أن يعطي الفقير بعض الحصص في الأرباح مكافأة لعمله، أو من الراجح، مقابل توظيف المبالغ الصغيرة للأقارب الفقراء.

ويبدو أن هذا الاتجاه قد ظهر صداه في أبيات مطرود بن كعب[٣٧]:

والخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

[٣٧] أنظر بيركلاند: المرجع السابق ص ١١٩، وانظر هذه الأبيات أيضاً في ابن عربي: محاضرات الأبرار ١١٩/٢، الطبرسي: مجمع البيان (سورة قريش ١٠٦)، البلاذري: أنساب ٥٨/١، اليعقوبي: تاريخ ٢٠٢/١، الديار بكري: تاريخ الخميس ١٥٦/١، سير الملوك، مخطوط الورقة ١٧٣ أ.

وهذه الفكرة (فكرة) مخالطة الفقير (أو الأدنى مرتبة) مع الغنى كانت المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي، وقد قررها الشعر[٣٨].

أنه لتقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالأسر المحتاجة على أن اعتناق الإسلام اعتبر انحرافاً عن هذه المثل.

فنعيم بن عبد الله[٣٩]، من العويج (من عدي قريش) اعتنق الإسلام، وقد كان والده يطعم فقراء عدي، وبعد اعتناق الإسلام لقيه الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قال له: (يا ولد عبد الله، لقد هدمت ما بنى أبوك، وقطعت ما وصل (بفضله) حين تبعت محمداً)[٤٠].

---

[٣٨] قارن القالي: الأمالي ٢/١٥٨، البكري: السمط ص ٥٤٨، ابن شرف: رسائل الانتقاد: (رسائل البلغاء ص ٣٣٤) (الخرنق):

والخالطين نحيتهم بنضارهم — وذوي الغنى منهم بذي الفقر

وانظر ابن الشجري: الحماسة ص ٥٦ (عمرو بن الاطنابة):

والخالطين حليفهم بصريحهم — والباذلين عطاءهم للسائل

وانظر الخالديين: الأشباه ١/ ٢٠، حسان: الديوان ص ٣٠٨:

والخالطين غنيهم بفقيرهم — والمنعمين على الفقير المرمل

وقارن الأعشى : الديوان ٣/٥٣:

وأهان صالح ماله لفقيرها — وأسا وأصلح بينها وأساها

وانظر ابن عبد البر: الاستيعاب ص ٣٠٠ (النعمان بن بشير):

فلا تعدد المولى شريكك في الغنى — ولكنما المولى شريكك في العدم

[٣٩] أنظر حوله ابن حجر: الاصابة رقم ٨٧٧٧ (إعتنى بأرامل بني عدي).

[٤٠] البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٨٦٩ أ.

وتذكر رواية البلاذري حول حلف الفضول، تعهداً خاصاً بمساعدة المحتاجين القادمين إلى مكة، من فضلة مال القوم الداخلين في الحلف (... تعاقدوا على ...... ومواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)[٤١].

يقول النعمان بن عجلان الشاعر الأنصاري، حين يفخر بفضل الأنصار على المهاجرين[٤٢]:

قلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقر

نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على شطر

وهناك روايات حول حكيم بن حزام تفيد بأنه اعتاد توزيع أرباح قوافله على فقراء ومحتاجي قومه[٤٣].

إن الروايات المستشهد بها سابقاً تعكس بوضوح الاتجاه للعناية بالفقراء والمحتاجين من العشيرة.

وهكذا فإن توطيد هاشم للإيلاف استطاع بنجاح أن يوسع التجارة وأن يشارك الأغنياء والفقراء في القوافل، وصارت القوافل

---

(٤١) المصدر السابق مخطوط الورقة ١٤٤ أ، رواية أخرى جاءت في السيرة لابن هشام ١/١٤١.

(٤٢) أبو حجر: الاصابة رقم ٨٧٤٧، ابن عبد البر: الإستيعاب: ص ٢٩٨.

(٤٣) الزبير بن بكار: نسب قريش ١/٣٦٧ رقم ٦٤٤.

مشروعاً مشتركاً، فإذا ما جازف تاجر وأرسل قافلة خاصة، فإن التجار الآخرين يشتركون معه في استثمار أموالهم في قافلته[٤٤].

إن النص الآتي للقمي حول وعي المكيين الاجتماعي، وعنايتهم بالفقراء، جدير بالملاحظة: (وكانت قريش يتفحصون عن حالة الفقراء ويشدون خلَّة المحاويج)[٤٥].ويبدو أن هاشماً قد وسّع الاتجاه في العناية بالمحتاجين، حتى أصبح مبدأ اجتماعياً، فيذكر الديار بكري رواية حول هاشم في سند عن ابن عباس تفيد: بأن أهل مكة كانوا في حال فقر، حتى جمعهم هاشم، بإرسال القوافل إلى سورية واليمن.لقد درجوا على تقسيم أرباحهم بين الأغنياء والفقراء، حتى أصبح الفقيرَ مثل الغني[٤٦].ويتحدث ابن حبيب عن رجال الإيلاف قائلاً: بسببهم رفع الله قريشاً، وجعل فقيرهم غنياً: (أصحاب الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها...)[٤٧].وقد يبدو للمرء وجود تشابه بين مزج الفقير والغني (المخالطة)، وبين المؤاخاة[٤٨].وقد رافق إبرام اتفاقيات الإيلاف تحسين الحال الداخلية في مكة، وتجهيز وسائل الراحة للحجاج.

---

(٤٤) المصدر السابق ١/ ٤٧١ رقم ٦٤٥، ٦٤٦.

(٤٥) القمي: غرائب القرآن (على حاشية تفسير الطبري بولاق ١٢٢٩هـ). ١٦٩/٣٠.

(٤٦) الديار بكري: تاريخ الخميس ١/ ١٥٦.

(٤٧) محمد بن حبيب: المحبر: ص ١٦٢.

(٤٨) قارن السلامي: أدب الصحبة ص ٥٠: (وكان (النبي صلعم) ينبسط في مال أبي بكر كما ينبسط في ماله ويحكم فيه كما يحكم في ماله).

إن البيوت الأولى في مكة كانت قد بنيت من قبل قصي[٤٩].

ومن الممكن أن نفترض أن تلك البيوت كانت متواضعة جداً، وكان قطع الأشجار في مكة يعد مشكلة خطيرة، بسبب حرمة مكة، ولكن قصيا أمر بقطع الأشجار وبناء البيوت[٥٠].

ويظهر أن البيوت كانت مستديرة الشكل، حتى لا تكون شبيهة بشكل الكعبة[٥١].

---

(٤٩) أنظر أبو البقاء: مناقب مخطوط الورقة ٨٥ أ.

(٥٠) أنظر ابن سعد: الطبقات: ٧١/١، البلاذري: أنساب ٥٨/١، كايتاني: حوليات ١٠٣/١ (٧٨)، اليعقوبي: تاريخ ١٩٧/١، الحلبي: انساب العيون: ١٤/١.

(٥١) الثعالبي: ثمار القلوب ص ١٣، وانظر الموصلي: غاية الوسائل إلى معرفة الأوائل مخطوط كمبرج ٣٣ الورقة ٥٨: (... وقيل: أول من بنى بها بيتاً سعد بن سهم (لكن انظر الفاسي: شفاء الغرام ١٩/١: سعيد بن عمر ب هصيص السهمي، قارن مصعب بن عبد الله: نسب قريش ص ٤٠٠) فقال عبد الله بن وادعة (إقرأ: بنو وداعة، أنظر مصعب: المصدر السابق ص ٤٠٦، وقارن الفاسي: المصدر السابق ١٩/١، وذكر الزبير بن بكار عن أبي سفيان بن أبي وداعة – حيث القراءة الصحيحة) يفتخر:

وسعد السعود جامع الشمل أنه	بدا الحلف والأحياء غير حلاف
فأوسق عهد الحلف والود بينهم	بأمر حصيف فيـــهم ونصاف
وذلك ما أرسى ثبيــر مكانــــه	وما بل بحر صوفـــــة بنطاف
وأول من بوى بمكـــة بيتــــه	وسور فيــــه ساكناً بأثـــــافي

كذا بدأ وبوى لأسباب الوزن في المخطوط: (سكنا) لكن انظر الفاسي: المصدر السابق والصفحة.

يسجل الموصلي (في الموضع السابق) أن أول من بنى بيتاً مربعاً في مكة كان بديل بن ورقاء الخزاعي (صاحب الرسول)، يروي الواقدي عن الزهري (الفاكهي: تاريخ مكة، مخطوط

ويذكر مؤرج السدوسي أن الزبير بن الحارث بن أسد كان أول من سقف بيتاً، لقد كانت قريش تهدم البيت الذي لا يكون فيه تعظيم للكعبة[٥٢].وكان حميد بن زبير بن الحارث بن أسد بن عبد العزي أول من بنى بيتاً مربعاً في مكة[٥٣]، وحين بنى بيته خافت قريش العقاب (من الله).وقد نظم الرجاز في ذلك أبياتاً:

اليوم يبنى لحميد بيته   إما حياته وإما موته[٥٤]

ولما لم يصب حميد ببلاء، بدأت قريش في بناء البيوت المربعة.

فإذا صحت هذه الرواية، فإن الزمن الذي تغير فيه بناء البيوت، كان النصف الثاني من القرن السادس.

إن أخت حميد هذا كانت أم حكيم بن حزام، وإبن حميد، عبد الله بن حميد قتل في أحد[٥٥].

ليدن رقم ٤٦٣ ، الورقة ٤٤٤ ب) أن أول بيت مربع بني في مكة أثناء فتنة عثمان (قال الواقدي وحدثني محمد بن عبد الله عن الزهري قال: ما بني بمكة بيت مربع حتى كانت فتنة عثمان رضى الله عنه).

[٥٢] مؤرج السدوسي: الحذف من نسب قريش ص ٥٤.

[٥٣] الزبير بن بكار: نسب قريش ٤٤٣/١، وانظر الفاكهي: المصدر السابق الورقة ٤٤٠ ب حول شكل البيوت: ... وإنها كانت عامة بيوتهم عروش من خصاص وسعف وجريد وكانوا يسمونها العروش.

[٥٤] تنسب هذه الأبيات لدويد، أنظر الزبير بن بكار: المصدر السابق والصفحة.

[٥٥] أنظر ابن هشام: السيرة ١٣٥/٣، البلاذري: أنساب ٣١٩/١ وكان قد أقسم أن يقتل النبي في أحد.

وهكذا يمكن أن نحدد زمن التغييرات المهمة في طراز بناء البيوت، هو العقد الأخير من القرن السادس.

لقد تنافس أشراف مكة في تقديم العون لراحة الحجاج، فقد قيل إن هاشماً كان يطعم الحجاج في كل موسم(٥٦)، وكان عبد المطلب أول من جهر الحجاج بالماء العذب(٥٧)، لقد حفر عبد المطلب بئر زمزم في زمن كسرى بن قباذ(٥٨)، وعلى الرغم مما في ماء زمزم من صفات دوائية(٥٩)، فإنه لم يكن مقبول الطعم، ولذلك كان عبد المطلب يمزجه بالزبيب وكذلك كان يعطي الحجاج الحليب مع العسل(٦٠).

وقد قام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب، فجهز ماء الشرب للحجاج.وقد شرب النبي من (السقاية)، والشرب من سقاية أسرة العباس يعدّ (سُنَّة)(٦١).

هناك روايات حول حفر الآبار، والمنافسة بين أشراف مكة، في توفير ماء الشرب للحجاج(٦٢)، فقد قيل إن سويد بن هرمي كان أول

---

(٥٦) البلاذري: أنساب ١/ ٦٠-٦١، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٧ ط. وستنفيلد.

(٥٧) المسعودي: مروج ٢/ ٤٦.

(٥٨) المصدر السابق والصفحة.

(٥٩) Rathjens: Die pilgerfahrt pp. 42, ٤٥.

(٦٠) الأزرقي: أخبار مكة ص ٧٠، قارن أبو ذر: شرح السيرة ص ٤٢ ط. برونله.

(٦١) أنظر السيوطي: الدر المنثور ٣/ ٢١٩.

(٦٢) قارن المصعب الزبيري: نسب قريش الصفحات ٣٢، ١٩٧-١٩٨.

من أعطى الحجاج الحليب ليشربوا[٦٣]، كما أعطى أبو أمية بن المغيرة المخزومي (زاد الركب)، وأبو وداعة السهمي الحجاج عسلاً[٦٤].

إن الروايات حول الإيلاف وحول التحسينات في مكة، وتجهيز الطعام والشراب للحجاج، كل ذلك يشير إلى الجهود المبذولة لازدياد هيبة المدينة وأمن الحج والتجارة؛ ولذلك فقد أعطيت التسهيلات الخاصة لبعض التجار القادمين إلى مكة للحج[٦٥]، وكانت القوافل التي تجهز بأحسن المؤونة وأجودها كي تحظى برضا القبائل، قد نالت الربح الوفير، وقد لعبت تميم في هذا المجال دوراً كبير الأهمية، ويمكن أن يقاس هذا من بعض الفقرات التي تتحدث عن الأسواق في الجاهلية، كما سجلها محمد بن حبيب[٦٦]، يذكر ابن حبيب في رواية حول سوق دومة الجندل: (إن كان تاجر يخرج من اليمن والحجاز كان يتخفّر بقريش ما دام مسافراً في بلاد مضر؛ لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر، ولا كانوا (أي التجار) يضايقون من حلفاء مضر، تلك كانت عادة متفق عليها بينهم، وكذلك كانت كلب لا تضايقهم بسبب حلفهم من تميم[٦٧]، وكانت طيء أيضاً لا تضايقهم بسبب حلفهم مع أسد.

---

[٦٣] المصدر السابق ص ٣٤٢، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١٥٣ أ.

[٦٤] محمد بن حبيب: المحبر ص ١٧٧.

[٦٥] المرزوقي: الأمكنة ١٦٦/٢، أنظر ترجمة محمد حميد الله.

Le prophete de L'Islam II. 606.

[٦٦] محمد بن حبيب: المحبر ص ٢٦٤-٢٦٥.

[٦٧] حميد الله في: Muslim conduct of state p. 54 (101).

(لأنهم كانوا (أي كلب) قد حالفوا بني جشم) خطأ مطبعي على ما يظهر.

وكانت مضر تقول: (قضت عنا قريش مذمّة ما أورثنا إسماعيل من الدين)[٦٨].

هذا الخبر جاء عند المرزوقي مع اختلافات مهمة[٦٩]: (كانت قريش تنطلق من مكة إلى (دومة الجندل)، فإذا أخذوا طريق الحزن فما كانوا يحتاجون لحماية أية قبيلة حتى يرجعوا، وكان ذلك بسبب مضر .... الخ[٧٠]، وعندما يغادرون الحزن أو يذهبون إلى الحزن يردون مياه

---

(٦٨) يترجم حميد الله:

Les Mudarites avaient l'habitude de
Dire (avec fierte) " Les Quraichites ont paye la dette de honte que nous avions contractee au nom d' Ismael (par les guerres fraticides et par le bellum omnium contra omnes) " Le prophete de l'Islam II. 600.

هذه الترجمة تبدو على أي حال غير مضبوطة، لكي يترجم:

"Que nous avions contractee au mon d'Ismael.

وقد قرأ حميد الله (أورثنا إسماعيل) (بالفتح) التي هي خطأ، وحق العبارة أن تقرأ (ما أورثنا إسماعيل) (بالضم)، إن العبارة عظيمة الأهمية لفهم موقف القبائل نحو قريش، ولأجل التفسير الصحيح للعبارة ينبغي أن نقتبس فقرة من الكلاعي: الاكتفاء ١/ ١٥٠ يناقش الكلاعي ميزات قريش ويسجل الفقرة الآتية: (... وكانوا على أرث من دين إبراهيم وإسماعيل من قرى الضيف ورفد الحاج وتعظيم الحرم ومنعه من البغي فيه والإلحاد وقمع الظالم ومنع المظلوم).

إن الفقرة التي تبدأ بـ(من قرى) هي شرح لـ(أرث من دين إبراهيم وإسماعيل).

والفقرة عند المرزوقي : الأمكنة ٢/ ١٦٢ لا تترك أي شك حول معنى الجملة: (وأورثنا أبونا إسماعيل). وقارن المجلسي: بحار الأنوار: ٦/ ٤٢.

(٦٩) المرزوقي: الأمكنة ٢/ ١٦٢.

(٧٠) ربما كان هناك بعض التطبيع أو الخطأ، ربما يقرأ أحد: (أو علوا الحزن).

كلب، وكانت كلب حلفاء بني تميم، ولذلك فما كانوا يقلقونهم، وإذا ذهبوا إلى الغور يمرون بأسد ويصلون إلى طيء...).

إن رواية المرزوقي تكمل رواية ابن حبيب، فتعبير ابن حبيب الغامض (في بلاد مضر) جاء هنا أكثر إتقاناً، إن الطريق الموصل من مكة إلى الحزن(٧١) كان تحت سيطرة القبائل المضرية، والحزن نفسه كامل في ملك تميم(٧٢).

إن الروايتين المهمتين رواية ابن حبيب ورواية المرزوقي تعطيان بعض المعلومات حول أسلوب مكة في العمل في منطقة مكة الحزن وتوسعها، هناك تحالفان قبليان لمضر، مرتبطان بمكة ارتباطاً وثيقاً، هما تميم وأسد.

وقد يسّر هذان الحلفان، حلف تميم وكلب (قضاعة) وحلف أسد وطيء (القحطانية)، لقريش في أن ترسل بكل أمن قوافلها، وتسيطر على التجارة في هذه الطرق.

وقد كانت هاتان القبيلتان – طيء وكلب – بصورة خاصة أشد خطورة على مكة، لأن أغلبية هاتين القبيلتين ما كانوا يحترمون قداسة مكة والأشهر الحرم، ومن المهم قول المرزوقي حول طيء (و (عند وصول أراضي طيء) كانوا (أي التجار) يعطونهم شيئاً، وكانت (أي

---

(٧١) أنظر: Thili: Die ortsnamen p. 56.

(٧٢) أنظر: Von oppenheim – caskel: die Beduinen III, 164.

طيء) تقودهم (في الاتجاه) الذي يردونه)[٧٣]، وستتعرف على موقف طيء وكلب تجاه مكة فيما بعد.

إن خط سير التجار إلى مركز التجارة في المشقر، كان يحتاج أيضاً إلى حماية قريش؛ لأن الطريق يمر ببلاد مضر، وكانت سوق هذه المدينة التجارية المهمة – التي يتردد عليها تجار الفرس، وهي قاعدة مهمة للحكم الفارسي – بإمرة رجل من تميم[٧٤].

إن تمحيص الروايات حول دومة الجندل[٧٥]، تجعل الباحث يفترض أن تميماً لعبت دوراً كثير الأهمية في السيطرة على طرق هاتين السوقين، وفي تأمين قوافل مكة.

إن نفراً من تميم أتوا مكة للتجارة، وقد أصيب تميمي بظلم عند زيارته، فسبب ذلك خلافاً بين زعماء قريش، إن هذه القصة دونها ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي[٧٦]، وذلك: أن عبد الله بن جعفر، نازع في المجد يزيد بن معاوية، في حضور معاوية[٧٧].

---

(٧٣) المرزوقي: الأمكنة ٢/١٦٢.

(٧٤) ابن حبيب: المحبر ص ٢٦٥.

(٧٥) أنظر مادة دومة الجندل.L. Veccia Vaglieri in EI2

(٧٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٣/٤٦٥، ابن عساكر: تاريخ ٧/٣٢٩.

(٧٧) أنظر رواية هذه الحادثة في سيرة دحلان ١/٢٢ (على هامش إنسان العيون): كان الكلام بين ابن عباس ومعاوية، وانظر ابن العربي: محاضرات الأبرار ١/١٧٩.

سأله: (بأي أجدادك تفاخر؟ بحرب الذي آويناه أو بأمية؟)، إننا نعني هنا بقصة حرب الذي آواه عبد المطلب، والتي جاءت كالآتي: كان لقريش حق الأسبقية في عبور العقبة عند السفر، وكان على الآخرين أن ينتظروا حتى تجتاز قريش.

فخرج حرب في ليلة، وعند عبوره العقبة لقي رجلاً من أسرة حاجب بن زرارة، متوجهاً إلى مكة في عمل، تقدم حرب نحو الرجل واستعلم عن اسمه، فأجاب إنه (ابن) حاجب بن زرارة، وقد عبر التميمي العقبة مع حرب سوية، فغضب حرب، وأقسم أنه لن يسمح له أن يمكث في مكة ما دام حياً.

قضى التميمي بعض الوقت خارج مكة، ولأن متجره بمكة، فقد قرر أن يدخل ويسأل عن الرجل الذي يستطيع حمايته من حرب، فدخل التميمي ابن (زرارة) مكة ليلاً، وقصد بيت عبد المطلب، وأنشد قصيدة سرد فيها الحادث وطلب حماية الزبير بن عبد المطلب[٧٨]، وهكذا منح التميمي الحماية.

وفي الصباح استدعى الزبير بن عبد المطلب أخاه الغيدق، وانطلقا متوشحين بالسيوف يحميان التميمي، وحين لقيهم حرب هجم على التميمي وصفعه على وجهه، فنجم عن ذلك خصام بين أولاد عبد

---

[٧٨] كان الزبير بن عبد المطلب زعيم بني هاشم في (أيام الفجار) انظر محمد بن حبيب: المحبر ص ١٦٩، ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٧، البلاذري: أنساب ١/١٠٢.

المطلب وبين حرب، واختال حرب للهرب، ولجأ إلى بيت عبد المطلب الذي آواه.

هذه القصة ربما تشير إلى العلاقة بين بني هاشم ودارم، وتذكر الرواية أسماء بعض أناس من دارم، الذين كانوا على صلة ببني هاشم كان أحدهم (حَرَمي) النبي.

إن المكانة المرموقة التي تتمتع بها تميم في مكة كانت ترتكز خاصة على قوتهم وخدماتهم لتجارة مكة الخارجية.

كانت تميم قوية، وكان زعماؤها مبجلين جداً، إن هيبة زعماء تميم (من فرع دارم) تنعكس في القصة الطريفة التي تعزى إلى النبي: إن رجلاً (مسلماً) تزوج امرأة من طبقة دنيا، وكانت المرأة تعير من قبل أخيه بضعة نسبها، وكان النبي قد أخبر عنه كما أخبر عن فضيلة المرأة التي تزوجها، فقال مخاطباً زوجها: إنك لا تلام لأنك لم تتزوج امرأة من أشراف العرب مثل بنت حاجب بن زرارة، إن الله جاء بالإسلام وجعل الناس سوية، إن المسلم لا يلام (على مثل هذا الزواج)(٧٩).

إن فريقاً من رجال تميم كانوا يعدون ضمن سياسي مكة يساهمون في اداراتها كما ساهموا في ازدياد نفوذها وهيبتها في المجتمع القبلي، وكان ذلك على وفق نظام خاص، ذلك النظام هو نظام الحمس.

---

(٧٩) الفاسي: شفاء الغرام ٢/١٤٢.

يعد ابن سعد في الحمس قريشاً، وخزاعة، وناسا من العرب (ولدتهم قريش).وطبقاً لرواية أخرى لابن سعد: (وأحلاف قريش)[٨٠].

ويذكر ابن اسحق في الحمس: قريشاً، وخزاعة، وكنانة، ويضيف ابن هشام (في رواية عن أبي عبيدة النحوي) عامر بن صعصعة[٨١].

ويعد ابن قتيبة في كتابه المعارف في الحمس: قريشاً وناساً من كنانة[٨٢]، ولكنه يعد في كتابه المعاني الكبير: قريشاً ومن ولدت وحلفاءها[٨٣].

أما الجاحظ فيعد في الحمس: قريشاً وعامر بن صعصعة والحارث ابن كعب[٨٤].

ويعد الأنباري[٨٥]، والمرزوقي[٨٦] في الحمس: قريشاً وكنانة وخزاعة وعامر بن صعصعة.

---

[٨٠] ابن سعد: الطبقات ١/٧٢، وانظر ابن ظفر الصقلي: أنباء نجباء الأبناء ص ٦٩-٧٠.

[٨١] ابن هشام: السيرة ١/٢١٢، الكلاعي: الاكتفاء ١/٢٧٢.

[٨٢] ابن قتيبة: المعارف ص ٢٦٩.

[٨٣] ابن قتيبة: المعاني الكبير ص ٩٨٩.

[٨٤] الجاحظ: مختارات فصول مخطوط الورقة ٢٠٨ ب.

[٨٥] المفضليات: ٣٤، ١٤ ط لايل.

[٨٦] المرزوقي: شرح الحماسة ص ٣١، وانظر المرزباني: نور القبس ص ٢٥٨ (عن ابن الكلبي)، ابن حبيب: المنمق ص ١٤٣-١٤٦، مقاتل: تفسير الخمس مائة آية، مخطوط

ولدى أبي حيان في تفسيره للقرآن هذه القائمة: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وعامر بن صعصعة ونصر ابن معاوية[87].

ويعطي القرطبي قائمة مماثلة تقريباً ولكنه يأتي بجشم بدلاً من خثعم[88].والحمس في لسان العرب: قريش ومن ولدت قريش، وكنانة، وفهم، وعدوان، وعامر بن صعصعة، وخزاعة[89].

إن قوائم الحمس المستشهد بها آنفاً متناقضة، وإن فحص هذه القوائم يظهر بلا شك أن الحمس يشمل قريشاً وساكني مكة، وأناساً خارج مكة، وطبقا لما يقوله ارندونك: (الحمس اسم تقليدي أعطي لساكني مكة عند ظهور محمد بقدر ما كانوا مميزين عن القبائل الأخرى بعادات خاصة خلال الإحرام، وكانت بقية القبائل الأخرى تعرف بـ (الحِلَّة)[90]، وقد تغير هذا المفهوم.

إن القائمة المطولة لقبائل الحمس تعطى من قبل محمد بن حبيب، فهو يقرر: أن الحمس كل قريش، وخزاعة (لنزولها في مكة، ومجاورتها

المتحف البريطاني رقم OR ٦٣٣٣ الورقة ٢٨ ب، المصدر السابق نفسه، حيدية ٥٨ الورقات ٢٩ب، ٣١ب، ٨٧ب، وحول العادات الخاصة بطواف ثقيف وعامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج والحارث بن عبد مناة انظر المصدر السابق الورقة ١٢٣ أ.

[87] أبو حيان: البحر المحيط ٢/٦٣.

[88] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢/٣٤٥، (سورة البقرة آية ١٨٩) وأنظر بلاشير: القرآن ٢/٧٨٢ رقم ١٨٥.

[89] لسان العرب (حمس).

[90] ارندونك: دائرة المعارف الإسلامية (حمس).

قريشاً)، وكل من ولدت قريش من العرب، وكل من نزل مكة من قبائل العرب، فمن ولدت قريش: كلاب، وكعب، وعامر، وكليب، بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر.

وإليها يشير لبيد قائلاً:

سقى قومي بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال[٩١]

والحارث بن عبد مناة بن كنانة، ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة، بنزولهم حول مكة، وعامر بن عبد مناة، ومالك وملكان ابنا كنانة، وثقيف وعدوان، ويربوع بن حنظلة، ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر[٩٢].

ويقال إن بني عامر كلهم حمس؛ لتحمس إخوتهم من بني ربيعة بن عامر، وعلاف وهو ربّان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة،

---

[٩١] أنظر ابن عبد البر: الأنباء ص ٨٧، لبيد: الديوان ص ٩٣ (ط إحسان عباس)، ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ١٢٠ ب (في الجمهرة: مجد بنت تيم بن مرة بن غالب بن فهر)، النص المستعمل في الجمهرة، للفائدة: (وهي التي حمست بني عامر جعلتهم حمساً).

[٩٢] جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر بن كنانة كانت زوج حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم، ولدت لقيس يربوعاً وربيعة وعمراً - أولاد حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وبعد وفاة حنظلة ابن مالك تزوجت مالك بن عمرو بن تميم، وولدت لمالك: غيلان وأسليم وغسان - أبناء مالك بن عمرو، أنظر ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقات ٦٢أ، ٩٠أ، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٥٨ ب.

وجناب بن هبل بن عبد الله[٩٣] من كلب، أمه آمنة بنت ربيعة بن عامر ابن صعصعة، وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب بن فهر[٩٤].

إن قائمة ابن حبيب ترى حقيقة فريدة، ذلك أن القبائل التي قبلت نظام الحمس، كانوا من أصول مختلفة، وينتمون إلى قبائل متعددة.

فعامر بن صعصعة كانوا مضريين، وكلب تعود لقضاعة، وأصل ثقيف مختلف فيه (طبقاً لبعض الروايات يعتبرون من أحفاد قيس عيلان)، وعدوان تعود لقيس عيلان. وخزاعة كانت من أصل جنوب الجزيرة[٩٥]. والأهم من ذلك أن هذه القبائل عاشت في مناطق مختلفة من شبة الجزيرة، فقد سكنت ثقيف في جنوبي شرقي مكة، وكنانة في الجنوب حيث تسيطر على طريق مكة - اليمن، وعامر بن صعصعة في شمال شرقي مكة، وقضاعة (كلب) في الشمال، تسيطر على طريق التجارة إلى سورية، ويربوع ومازن تسيطران على طريق الحيرة وفارس.

وللفائد نذكر حال خاصة هي حال زهير بن جناب الكلبي، فقد قررت غطفان - طبقا لرواية - أن تنشيء (حرماً) مثل مكة، فهاجمهم زهير بن جناب، وحطم حرمهم[٩٦].

---

(٩٣) أنظر ابن دريد: الاشتقاق ص ٥٤٠.

(٩٤) محمد بن حبيب: المحبر ص ١٧٨-١٧٩.

(٩٥) أنظر ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٦٨ وما بعدها.

(٩٦) الأغاني: ١٢/١٢١، ٢١/٦٣.

وتفسر هذه الرواية سبب كون جناب من كلب ضمن نظام الحمس.ربما يجد أحد بعض الصلة بين (الإيلاف) الذي بحث سابقاً وبين (الحمس).وأن تعبير الثعالبي بأن هاشماً: (أخذ الإيلاف من الأعداء)[٩٧]، يعني في الحقيقة أن الإيلاف كان نظاماً مكملاً للحمس.

لقد قصد بالإيلاف تلك القبائل التي ما كانت تحترم الأشهر الحرم، أو – مع أنها تقوم بالحج – كانت تحت تأثير الجماعات الموالية للدول الأجنبية، هذه القبائل مثل طيء وخثعم وأفخاذ من قضاعة[٩٨]، وغفار من كنانة[٩٩]، كانت تعطى نصيباً من الأرباح كي تدع القوافل آمنة.

فإلى أي مدى كانت مكة معتمدة على هذه القبائل، وراغبة في أن تحمل شروط الإيلاف؟ يمكن أن يقاس ذلك من بعض الأخبار المحفوظة.

---

(٩٧) ثمار القلوب ص ٨٩.

(٩٨) البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٠٠ب، الجاحظ: الحيوان ٢١٦/٧ وانظر البلاذري: أنساب مخطوط ٢٦٦ أ: الكلام بين معاوية وعدي بن حاتم إذ أن معاوية أتهم طيئاً أنها لا تحترم حرمة مكة، طيء وخثعم لا يقومون بالحج إلى مكة، وكان هذان الحيان يدعيان بـ(الأفجرين).

(٩٩) أنظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٤/٢ : (وكانوا يحلون الشهر الحزام) وأنظر أسد الغابة ١٦٠/١.

كان العباس حاضراً حين ضرب أبو ذر بقسوة في مكة بعد أن اعتنق الإسلام، لقد لام العباس قومه قائلاً: (ويلكم، تقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممركم على غفار؟) فأخلوا سبيله[١٠٠].

واستطاع ثمامة بن أثال من حنيفة أن يهدد قريشاً بقطع المؤونة من اليمامة، وقد حقق تهديده فقطع ميرتهم[١٠١].

كما استطاع سعد بن معاذ إفزاع أبي جهل إذا هو منعه من الطواف حول الكعبة سيقطع تجارته مع سوريا[١٠٢].

وقد يحاول المرء أن يفكر أن هنالك بعض الصلة بين كلمة (ألَّفهم) (أنجز عهود الإيلاف معهم)، وبين عبارة (المؤلفة قلوبهم)، (الناس الذين كسبت قلوبهم (للإسلام) ببعض المنح).

ولكن الحمس يدل على أناس شديدي الاقتناع بقدسية مكة، مقرين بتميُّز قريش مسرورين بأوثانهم الخاصة في طقوس (الحج)، وعلى استعداد للذود عن معتقداتهم.

يمكن أن تميِّز بعض سمات الحمس من فصول للجاحظ، يذكر الجاحظ أن من مزايا قريش: أنه لم يتنسب قرشي قط إلى قبيلة أخرى، بينما

---

[١٠٠] الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٣٧/٢.

[١٠١] ابن عبد البر: الاستيعاب ص ٧٩، القسطلاني: ارشاد ٤٣٣/٦، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٣/١٢، الحلبي: أنسان العيون ١٩٨/٣.

[١٠٢] ابن العربي: محاضرات الأبرار ٢٦٦/٢، صفة الصفوة: ٣٧/١: (لأقطعن متجرك إلى الشام).

تجد حتى اليوم (أشراف العرب - مثل بني مرة بن عوف بعض بني سليم، وخزاعة، وآخرين - يزعمون كونهم من أصل قرشي).

ولم تئد قريش بنتاً حيّة أبداً، وكذلك كان سكان الطائف لا يئدون؛ لأنهم كانوا جيران قريش وأصهارهم بالزواج، ولأنهم كانوا حمساً، وكانت قريش هي التي جعلتهم حمساً[١٠٣].

ويقول الجاحظ مواصلاً: وحتى ظهور الإسلام لم تسب امرأة قرشية قط من قبل القبائل العربية ولم يكن هناك أي أسير أمة قرشية.

لقد ميّز القرشيون أنفسهم من بقية القبائل، ذلك أنهم لم يزوجوا بناتهم من أشراف القبائل الأخرى، ما لم يأخذوا ضماناً بأنهم سيعتنقون فكرة الحمس، (بينما هم أنفسهم - كما يؤكد الجاحظ - تزوجوا بنات القبائل الأخرى بلا شروط تلزمهم)، تلك القبائل كانت: عامر بن صعصعة، وثقيف، وخزاعة، والحارث بن كعب.

كانوا أناساً متعبدين (وكانوا ديانين)؛ ولذلك نبذوا الغزو، كان ذلك لكي يتجنبوا النهب والظلم واللصوصية واغتصاب النساء.

وفي فصل آخر يناقش الجاحظ صفات قريش، ويلاحظ أن قريشاً ظلت كريمة، على الرغم من أن أرباحها لم تكن كبيرة، منذ أن امتنعوا عن الغزو، وينوه الجاحظ بكرم قريش، وعنايتهم بالحجاج، واهتمامهم بذوي القربى.

---

[١٠٣] الجاحظ: مختارات فصول: مخطوط الورقة ٢٠٢ وما بعدها.

يقول الجاحظ: كانت قريش تتفقد رجال القبائل بالأموال، فكانت غطفان مخصوصة بعناية المغيرة (المخزومي)، وذهب بنو عامر لشخص آخر، وتميم لشخص غيره، وقد الزمتهم قريش بتأدية فروض الحج، وقامت هي بكل ما يحتاجون إليه(١٠٤).

ويؤكد الجاحظ أن قريشاً بقيت (لقاحاً) حرة، لم تدفع أية ضريبة لأحد، وكانت لها (الرفادة) و (السقاية) الخ.

ويكرر الجاحظ في الفصل الثالث أن كل قريش كانوا حمساً، وقد امتنعوا تدينا من الغزو والأسر ونكح السبايا عند أسرهن ووأد البنات، ويقول كذلك: إن قريشاً لم تزوج بناتها، ما لم تشترط أن تكون ذريتهم

---

(١٠٤) الجاحظ: مختارات فصول: مخطوط الورقة ٢٠٤أ: فيقتسمونهم فتكون غطفان للمغيرة وبنوا عامر لكذا وتميم لكذا...) عند الزبير بن بكار: نسب قريش، مخطوط الورقة ١٢٨ب خبر طريف حول تخصيص حصص من عشائر قريش.
أنهم (قريش كانوا يعطونهم ملابس يلبسونها في الطواف حول الكعبة، وكان الأعراب يخلعون ملابسهم التي جاءوا بها إلى مكة، وكان أهل مكة يعطونهم نصيباً من لحوم الأضاحي.
ونزلت فزارة في بيت المغيرة بن عبد الله بن عمروبن مخزوم، أول من منع المغيرة أن يعطي حصته من الجزور هو خشين بن لأي الفزاري الشمخي...، قارن ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٩٦/٤، وانظر ابن دريد: الاشتقاق ص٢٨٢ (ظويلم) كلمة (حريم) ليست مدونة في (المفردات كعطاء لقريش عن نزول البدو وهي مدونة في قصة ظويلم ومروية من قبل البلاذري في كتابه الأنساب مخطوط الورقة ١١٠١أ، وللفائدة، البيت المستشهد به:

ونحن منعنا من قريش حريمها ... بمكة أيام التحالق والنحر

ويذكر البلاذري أيضاً قصة عمرو بن جابر بن خشين الذي كان يأخذ من كل أسير من غطفان جملين، وقد منعه ظويلم بن عرين عن أخذ الفدية (قارن رواية ابن دريد السابقة).

حمساً.ولقد كانوا مجبرين – لسكناهم في واد مجدب – أن يجدوا وسائل رزق، وحصلوا على الإيلاف، وقاموا برحلات إلى الملوك[١٠٥].

وفي الفصل الرابع من تقرير الجاحظ حول الحمس تكرار، ولكن هنالك بعض التفصيلات التي تستحق التنويه، منها ذكر النوافل – يقول الجاحظ ذهبوا إلى (أرض) قيصر بن بيزنطة، وإلى النجاشي في الحبشة، وإلى المقوقس في مصر.وهذه هي الحال الوحيدة التي تذكر فيها مصر كوجهة لتجار مكة.ويرسم الجاحظ في هذا الفصل، خطاً بين حمس قريش، وبين الذين صاروا حمسا، حمس عامر بن صعصعة والحارث بن كعب، لقد امتنعت قريش عن الغزو حين صارت حمسا، بينما استمرت القبائل التي اقتنعت بفكرة الحمس على الغزو، ونكح الأسيرات، وأخذ الغنائم، وقد ظلت قريش مع ذلك شجاعة[١٠٦].

يعد ابن الفقيه في روايته الذين اعتنقوا فكرة الحمس هم: خزاعة، وعامر بن صعصعة، وثقيف، و (رجال قبائل)، ويسجل الرواية حول الشرط المفروض على أشراف القبائل المتزوجين نساء من قريش، ويذكر تفصيلات حول القيود المفروضة على الحجاج من غير الحمس، فيقول:

---

[١٠٥] الجاحظ: مختارات فصول مخطوط الورقة ١٦ب وما بعدها.

[١٠٦] الجاحظ: مختارات فصول، مخطوطة الورقة ٢٠٨ب، وما بعدها، قارن الثعالبي: ثمار القلوب ص ٨ وما بعدها (أهل الله)، ومغزى التعبير: وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء.
لتعبير (أهل الله) أنظر الفاكهي: المصدر السابق الورقتان ٤١٥ب – ٤١٦ أ، الأزرقي: المصدر السابق ٣٨٠-٣٨١، محمد حسين القزويني: شرح شواهد مجمع البيان ٦٢/٢ رقم ٣٣٦، سير الملوك، مخطوط الورقة ١٧٧أ.

عليهم أن يتركوا مؤونتهم خارجاً عند دخول مكة، وأن يخلعوا ملابسهم التي يلبسونها خارج منطقة مكة، ليلبسوا ملابس الحرم (التي يحصلون عليها شراء أو إعارة أو هدية)، وإذا لم يجدوا ملابس للإحرام فإنهم يؤدون الطواف عرايا.لقد ألزموا الحجاج أن يبدأوا (الإفاضة) من المزدلفة.وقد كانت قريش (لقاحاً)، لا تدين لدين الملوك، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، ولم يؤد أهلها أتاوة[١٠٧].ويذكر ياقوت الحمس، وطبقاً لروايته فإن قريشاً قد ضمت إلى جانبها بفكرة الحمس القبائل: كنانه وجديلة قيس، وفهم وعدوان ثقيف وعامر بن صعصعة.

ويذكر المشقة التي ألزموا بها أنفسهم، والقيود المفروضة على الحجاج، وأن أهل مكة كانوا (لقاحاً).

ويقول كانت تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم، فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم، والاقتداء بآرائهم فرضاً وشرفاً عندهم[١٠٨].

وفي رواية للحلبي ذكرت مكة على أنها (دار الحمس): في أبيات تنسب إلى كاهن لهب[١٠٩].

---

[١٠٧] ابن الفقيه: كتاب البلدان ص١٨.

[١٠٨] ياقوت: معجم البلدان (مكة).

[١٠٩] كان اللهبي يعرف كرجل له علم خاص بزجر الطير انظر ولهاوزن: Wllhausen: Reste p. 134.

ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٩١، السهيلي: الروض الأنف: ١/١١٨.

وينوه الحلبي بشروط زواج قريش، ورفضهم للغزو الذي ارتبط بالسلب والنهب والاغتصاب(١١٠).

وتقدم المصادر تفصيلات حول فروض الحمس والتشديد في المشقة(١١١)، فكانوا يرون (الوقوف) في مزدلفة، بدلاً من عرفات(١١٢).

لقد حبسوا أنفسهم خلال الحج في حدود الحرم، ما كانوا يأكلون اللحم خلال الحج، ولا كانوا يعدون اللبن الخاثر، ولم يقيموا في ظلال البيوت، ولم يدخلوا بيوتهم من الأبواب(١١٣)، إلى آخره.ومن الواضح أنهم بإلزام أنفسهم المشقة أرادوا أن يعبروا عن احترام الكعبة والحرم.

يربط الزمخشري الجذر (حمس) مع الجذر (حرم).

ويستخلص أن قريشاً اكتسبوا مكانتهم الممتازة المبجلة لسكناهم الحرم، ودعوا أنفسهم (أهل الله)(١١٤).

---

(١١٠) الحلبي: إنسان العيون: ١/٢٤٢.

(١١١) أنظر محمد بن حبيب: المحبر ص ١٨٠، ياقوت: معجم البلدان (مكة)، ابن العربي: محاضرات الأبرار ١/١٦٢، ١٥٠.

(١١٢) أنظر ولهاوزن

Wellhausen: Reste p. 77.
Rathjens: Die pilgerfahrt pp. 72-73.

ولكن النبي لم يتبع الحمس في وقوفهم – أنظر الذهبي: تاريخ الإسلام ١/٤٩.

(١١٣) ولكن أنظر الروايات المخالفة في تفسير الطبري: (سورة البقرة آية ١٨٩) والسيوطي: الدر المنشور ١/٢٠٤ وما بعدها.

(١١٤) الزمخشري: الفائق (حمس).

ذلك أن فكرة الحمس كانت في الحقيقة مرتبطة بعبادة الكعبة، وقد ثبت صراحة أن الكعبة كانت تسمى (الحمساء)[١١٥].ومن الواضح أن هذا الربط بين قريش والقبائل التي لها صلة بالحمس وسع علاقاتهم.

ويلاحظ كاسكل أن عامر بن صعصعة لكونهم حمسا، كانوا على صلة جيدة بسكان مكة[١١٦].وإن شاعراً وزعيماً من بني عامر، هو عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، أقسم بالشهر الحرام[١١٧] لبني أمية، وأماكن قريش المقدسة، والضحايا[١١٨].

قال خالد بن جعفر عم عوف: إنه أول من كسا الكعبة بالديباج، الذي غنمه من قافلة غزاها[١١٩].وكان كعب وكلاب من بني عامر يدعيان (كعب قريش) و (كلاب قريش)[١٢٠].

---

(١١٥) الفيروز آبادي: القاموس (حمس)، لقد جاء تفسير غريب للحمس في الإيناس: المغربي مخطوط الورقة ٢٦ب: (كانوا يدعون حمساً لأنهم امتنعوا عن الخدمة في العمل...).

(١١٦) دائرة المعارف الإسلامية (عامر بن صعصعة).

(١١٧) (بعين ذي الحجة).

(١١٨) الضبي: المفضليات (القصيدة)٣٥ البيت ٤-٥ (ط لايل):

وإني وما حجت قريش	محارمه وما جمعت حــــراء
وشهر بني أمية والهدايا	إذا حبست مضرجها الدماء

وأنظر العصامي: سمط النجوم العوالي ٢١٨/١: وإنما سموا الحمس بالكعبة؛ لأنها حمساء، حجرها أبيض، يضرب إلى السواد، وانظر التعريف الهام للحمس في المصدر السابق ص ٢١٩: لم تكن الحمس بحلف، ولكنه دين شرعته قريش، واجمعوا عليه.

(١١٩) السهيلي: الروض الأنف ٧٧/١، الآلوسي: بلوغ الأرب ٢٣٤/١.

(١٢٠) الضبي: المفضليات ص ٢٥٩.

ويذكر مالك بن نويرة من يربوع (تميم) الذي ينتسب للحمس حول بعض المعارك جماعة من الفرسان الذين أخبروا قريشاً على أنهم (عمّار)[١٢١].

وكان النبي نفسه أحمس[١٢٢]، وكان حرمي عياض بن حمار المجاشعي التميمي.كان إذا قدم مكة طاف في ثياب النبي[١٢٣].

من الروايات المستشهد بها سابقاً نستطيع أن نحصل على فكرة بسيطة حول الحمس، كان المبدأ الأساس للحمس هو عدم انتهاك منطقة الحرم، واستقلال[١٢٤] وحياد مكة.

---

[١٢١] الأصمعيات القصيدة ٣٦ البيت ٣ (ط الوارد) ،ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢٩٢/٤.

[١٢٢] أنظر المرزوقي: أخبار مكة ١٢٤/١، السيوطي: الدر المنثور ٢٠٤/١ وما بعدها.

[١٢٣] أنظر محمد بن حبيب: المحبر ص ١٨١، ابن قتيبة: المعارف ص ١٤٧، أبو عبيدة: كتاب الأموال ص ٢٥٦، ابن الكلبي: (الجمهرة مخطوط الورقة ٦٦أ الطبراني المعجم الصغير (ص٣) ابن الجارود: المنتقى ص ٥٠٠، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٨١أ، ابن حزم: جوامع السيرة ص ٢٥ (يفيد أنه كان ابن عم الأقرع بن حابس)، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢١٩، ياقوت: معجم البلدان (حرم) ابن حجر: الإصابة رقم ٦١٢٣، أبو نعيم: حلية ١٦/٢ (يذكر أنه أهل الصفة)، المجلسي: بحار الأنوار ٢٩٤/٢٢ (يفيد أن عياضاً كان قاضياً في عكاظ).

[١٢٤] يمكن أن يعرف رد الفعل الشديد للمكيين عندما يكون استقلالهم مهدداً من قصة عثمان بن حويرث، أنظر الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ٧٦ ب، المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٢١٠، لسان العرب (لقح) أبو البقاء: مناقب مخطوط الورقة ١٠ب، البلاذري: أنساب ٤ب/١٦٢ (وأنظر التعليقات) وأنظر الزمخشري: ربيع الأبرار،

لقد وصف الشعور بالأمن في مكة من قبل أحد أشراف مكة في الأبيات الآتية:

فخرنا والأمور لها قرار ... بمكتنا وبالبلد الحرام
وأنّا لا يرام لنا حريم ... وأنّا لا نروّع في المنام
وأنّا لا تساق لنا كعاب ... خلال النقع بادية الخدام
معاذ الله من هذا وهذا ... فإن الله ليس له مسامى[1]

إن البدوي لم يستطع أن يعود نفسه على حياة مكة الوادعة، ولذلك يقول قيس بن زهير العبسي:

تفاخرني معاشر من قريش ... بكعبتهم وبالبلد الحرام
فأكرم بالذي فخروا و لكن ... مغازى الخيل دامية الكلام
وطعن في العجاجة كل يوم ... نحور الخيل بالأسل الدوامي

مخطوط المتحف البريطاني رقم ٦٥١١ Or الورقة ٨٣ب: ... لم تزل مكة حرسها الله أمناً ولقاحاً، قال حرب بن أمية:

أبا مطر هلم إلى صلاح ... فتكفيك الندامى من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم ... أبا مطر مددت بخير عيش
وتنزل بلدة عمرت لقاحاً ... وتأمن أن يزورك رب جيش

كلمة (صلاح توضح على أنها اسم مكة، وانظر المصدر نفسه الورقة ١١٣أ: أن ملك الحبشة طلب من عبد المطلب أن يدين له، ولكن مكة كانت لقاحا، وأنظر المصدر السابق الورقة ٨٣ب: إن أهل مكة كانوا قد سئلوا من قبل بعض الملوك أن يعطوا الأتاوة، ولكن عبد المطلب رفض.

(وقارن مجلة (أربيكا) ١٥ سنة ١٩٦٨ ص ١٤٤ الملاحظة ٥: وأنظر العصامي: المصدر السابق ١/٢١٣-٢١٤، ابن سعيد: المصدر السابق الورقة ١٠٣ السطر ٥.

[1] البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٠٩٤ أ.

أحب إليّ من عيش رخي مع القرشي حرب أو هشام
وما عيش ابن جدعان يجر الخز في البلد التهامي(١٢٦)

يلاحظ أن بعض الطقوس والعادات كانت في الحقيقة تعبيراً عن احترامهم للكعبة المقدسة.

إن تنظيم الحمس هذا كان يشمل مختلف الوحدات القبلية ، من ذلك وحدات تميم التي سكنت في مناطق مختلفة من الجزيرة، وعرفت بصفاتها الحربية، وكانوا على استعداد للقتال دفاعاً عن معقتداتهم في قدسية مكة.

يبدو ان (الايلاف) كان قد أقيم على أساس الحمس، والحمس هم النخبة التي تمتاز بصلاتها الوثيقة بالمكيين، عن طريق طقوسهم وعاداتهم، وكلا النظامين، الحمس والإيلاف كان له مغزى اقتصادي، كما أن الصبغة الدينية ليست غريبة(١٢٧).

أما الناس الذين لم ينتسبوا إلى الحمس فكانوا (حلّة)، والحلة تشمل – طبقاً لرواية ابن حبيب – كل تميم (غير يربوع، ومازن، وضبّة، وحميش، وظاعنة، والغوث بن مرّ)، وكل قيس عيلان (عدا ثقيفاً، وعدوان، وعامر بن صعصعة)، وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة كلها،

---

(١٢٦) المصدر السابق نفسه.

(١٢٧) قارن:

Rathjens:Die pilgerfahrt, p. 80.
(.." Teilweise religios getarnt..")

(ما خلا علافاً وجنابا)، والأنصار، وخثعم، وبجيلة، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، (الفروع الأخرى من كنانة كانوا حمسا)، وكذلك هذيل، وأسد، وبارق[١٢٨].هذه الحلة - عند تأدية الحج - كانت تختلف تماماً في طقوسها خلال (الإحرام) وخلال (الطواف).

أما القسم الثالث الذي ذكره ابن حبيب فكانوا (الطلس)، ويشمل قبائل من اليمن وحضر موت، وهم علّ وإياد[١٢٩].

إن التقسيم على مجموعات ثلاث - حمس، حلة، طلس - يقابل بتقسيم آخر وهذا قد قسم القبائل على وفق قبولهم قدسية مكة:

١- المحرمون.

٢- المحلون.

---

[١٢٨] محمد بن حبيب : المحبر ص ١٧٩، وقارن العصامي: سمط النجوم العوالي ٢١٩/١.

[١٢٩] ابن حبيب: المصدر السابق، هناك مجموعات خاصة تستحق الذكر، أولئك هم البسل، تدل كلمة (بسل) على مدلولات تماثل الأفكار المتضامنة في كلمة (حمس): هي الجرأة والشجاعة والإقدام من جانب، وحماية (الحرم) من جانب آخر.
كان (البسل) عامر بن لؤي (أو عوف بن لؤي، أو مرة بن عوف بن لؤي) ذكروا أن البسل ثمانية أشهر حرم كانت لقوم لهم صيت وذكر في غطفان وقيس، أنظر الكلاغي: الاكتفاء ٧٨/١، ابن كثير: البداية ٢٠٤/٢، لسان العرب (بسل)، أبو ذر: شرح السيرة ٢٣٣: البسل كانوا قريشاً، لأنهم كانوا أهل مكة، ومكة حرم.

يشمل المحرمون الحمس وبعض القبائل من الحلة الذين يؤدون االحج.أما المحلون فلم يأبهوا بقدسية مكة، ولم يحترموا الأشهر الحرم، وقد كانوا خطراً على مكة.

يعد الجاحظ في المحلين: كل طيء، وخثعم (ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة).ويقول: ومن المحلين كذلك عدة عشائر من قضاعة، ويشكر، والحارث بن كعب.كانوا أعداء بسبب اختلاف دينهم واختلاف نسبهم(١٣٠).وضد هؤلاء المحلين قال صاحب الموسم قوله المشهور في هدر دماء المحلين: (... وإني قد حللت لكم دماء المحلين من طيء وخثعم فاقتلوهم حيث وجدتموهم إذا عرضوا لكم)(١٣١).

يذكر اليعقوبي المحلين: الناس الذين يعتبرون شرعاً مرتكبين للمظالم في هذه الأسواق، كانوا فئات من أسد، وطيء، وبكر بن عبد مناة، ومن عامر بن صعصعة(١٣٢).

---

(١٣٠) الجاحظ: الحيوان ٢١٦/٧ وما بعدها، قارن النجيرمي: إيمان العرب ص ١٢، محمد بن حبيب: المحبر ص ٣١٩ وما بعدها.

(١٣١) البلاذري: أنساب مخطوطة الورقة ٩٠٠ب، وللفائدة نذكر هذا البيت للحطيئة:

علام أك محرما فيكون بيني ... وبينكم المودة والإخاء

ديوان الحطيئة ص ١٠٠-١٠١، وفي الشرح (المحرم المسالم الذي يحرم دمه عليك ودمك عليه).

(١٣٢) اليعقوبي: تاريخ ٢٢١/١.

من الواضح أنه كان من الضروري اتخاذ بعض الخطوات لحراسة الأسواق الحرة[١٣٣] لمكة من القبائل المعادية والعناصر المتمردة مثل قطاع الطرق واللصوص.

ويذكر اليعقوبي: وكان من ضمن القبائل ناس حرّموا هذا، و (نصبوا أنفسهم) لمساعدة المظلوم وحقن الدماء ومنع اقتراف الجرائر، كانوا يدعون (الذادة المحرمين)، كان هؤلاء من عمرو بن تميم، وبني حنظلة بن زيد مناة (بن تميم) وهذيل، وشيبان، وكلب ابن وبرة، كانوا يحملون الأسلحة (في الأشهر الحرم).

وكانت القبائل تنقسم على أناس يتجردون من أسحلتهم خلال الأشهر الحرم، وآخرين يحملون أسلحتهم.

إن تقرير اليعقوبي مهم، فهو يلقي الضوء على دور بعض الجماعات من تميم، الذين نصبوا أنفسهم كقوة طواريء ضمن القبائل، للدفاع عن مكة وأسواق مكة.

ينبغي أن نتذكر القطعة المهمة للجاحظ المستشهد بها سابقاً[١٣٤]، إذ فسر الإيلاف كضريبة فرضت على القبائل، لأجل الدفاع عن مكة من

---

[١٣٣] راجع محمد بن حبيب: المحبر ص ٢٦٧ (ولم تكن فيها (أي عكاظ) عشور ولا خفارة).

[١٣٤] أنظر ما سبق رسائل الجاحظ ص ٧٠، والقطعة تجري عند الجاحظ كالآتي:

وقد فسره قوم بغير ذلك، قالوا: إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل كانوا لا

(ذؤبان العرب) قطاع الطرق، والقبائل المعادية، التي ما كان يمكن أن يسيطر عليها دون ذلك، وربما كان الإيلاف يشمل بعض النقاط حول أجور المتطوعين لحراسة الأسواق، وحراسة مكة.

ويقدم المرزوقي تفصيلات إضافية حول هؤلاء المتطوعين (Militia)[١٣٥]، كانت العرب تنقسم على ثلاثة أهواء مختلفة حول الأشهر الحرم:

١- ناس يرتكبون الأعمال المحرمة، وهؤلاء هم (المحلون)، الذين لا يحترمون قدسية الحرم، يسرقون في الحرم ويقتلون.

٢- وناس يمتنعون عن ذلك، ويحترمون الأشهر الحرم، (يحرمون الأشهر الحرم).

٣- وناس اتبعوا المبدأ الذي شرعه لهم[١٣٦] صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف من عمرو بن تميم، إنه هو الذي شرع لهم مقاتلة المحلين.

يؤمنون على الحرم، لا سيما وناس من الأعراب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً، مثل طيء وخثعم وبعض بلحارث بن كعب.

(١٣٥) المرزوقي: الامكنة ٢/١٦٦.

(١٣٦) ترجمة حميد الله .Le prophete p. 605

غير مضبوطة، فهو يجعل النص كالآتي:

..Mais les gens se partageaient en trlois groupes a ce propos ceux qui pratiquaient l'abomination .... Ceux qui s'en

هذه الرواية التي نقلها ابن الكلبي (عن أبيه) قد دحضت من قبل ابن الكلبي وأبي خراش، فهما يقرران: (ذلك زعم بني تميم، والثابت من وجهة نظرنا أنه كان القلمّس وأسلافه، إنه هو الذي كان ينسيء الأشهر).

إن تفنيد ابن الكلبي وأبي خراش لا يشير إلى كل الرواية حول صلصل، إنه يشير فقط إلى عبارة: (فإنه أحلّ (قتال المحلين، يبدوأ أن ابن الكلبي بشر صراماً إلى الذين ينسيء) الأشهر، وقد كان المنسىء (Intercalator) في الحقيقة هو الذي صرح بقتال المحلين، ولكن جماعة صلصل (المحرمين – الذادة)، هم الذين نفذوا مضمون هذا التصريح.وهناك رواية غريبة سجلها الشهرستاني[١٣٧] تزعم أن القلمّس (في النص المتلمس) ابن أمية الكناني كان على دين بني تميم، ويسجل العصامي[١٣٨] رواية ابن الكلبي، مقتبساً إياها من كتاب الفاكهي تاريخ مكة.هذه الرواية لها قطعة إضافية إذ يبدو أنها على جانب من الأهمية.

---

apstenaient..et enfin les fantaisistes(أهل الأهواء) partisans du Tamimite.

إن النص يتحدث عن ثلاثة أهواء إذ كان الناس منقسمين: (وكانت العرب في أشهر الحج على ثلاثة أهواء: منهم ... ومنهم .... ومنهم أهل هوى شرعه لهم صلصل.. الجماعة التي انشئت من قبل صلصل لم تكن ("fantaisistes") أن تعبير (أهل هوى) ليس ("peiorative" أنه يقابل في دلالته التعبير المستعمل في المجموعة السابقة.

[١٣٧] الملل والنحل ص ٤٤٣ (ط كرتون).

[١٣٨] المصدر السابق ١/ ٣٣٣.

تقول الرواية: إن جماعة صلصل اعتادوا أن ينزلوا على بئر في جوار منى يدعى بئر صلصل، ومن هذا المكان كانوا يتفرقون لكى يلتقوا بمجموعات مختلفة من الناس[١٣٩].يبدو أن الرواية حول (محرمين – ذادة) صحيحة، ويمكن الركون إليها، فأسيد، قبيلة صلصل، كانت على صلة وثيقة بمكة.وبعض بني أسيد جاءوا إلى مكة وأصبحوا أصدقاء لأسر ذات نفوذ، فاكتسبوا مالاً، وتزوجوا نساء من أسر شريفة، وصاروا من مواطني مكة المبجلين، وكان النفوذ لآل أسيد من بني النبّاش، وكانت بيوتهم في جوار الكعبة[١٤٠].وكان الأعشى بن زرارة بن النباش قد بكى على نبية ومنبه ولدي الحجاج بن عامر، اللذين قتلا في بدر[١٤١]، وأم بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، هي ابنة النبّاش بن زرارة[١٤٢].وينسب أحد جبال مكة إلى بني النبّاش[١٤٣].

وفي رواية ملفقة – ربما تتضمن شيئاً من الصدق – تزعم أن أكثم بن صيفي، الحكيم المشهور من بني أسيد، اقتبس حكمته من قصيّ،

---

[١٣٩] أنظر حول هذه البئر الأزرقي: المصدر السابق ص ٤٤٢.

[١٤٠] الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورق ٨٨ب، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٤٠ وما بعدها.

[١٤١] ابن هشام: السيرة ٣/ ١٦، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١٨٢ ب، أبو الفرج: الأغاني ١٦/ ٦٠.

[١٤٢] الزبير بن بكار: المصدر السابق الورقة ٨٩ب، المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٢٥٤، وانظر المناقشة حول كاتب (الصحيفة) عند السهيلي: الروض الانف ١/ ٢٣٢.

[١٤٣] الأزرقي: أخبار ١/ ٤٩٠، ياقوت: بلدان (شبية).

وعبد مناف، وهاشم، وأبي طالب[144]، ورواية ملفقة أخرى تزعم أن أكثم تعلم (النسب) من عبد المطلب[145]، وينتسب إلى أسيد كذلك أول (أو ثاني) زوج لخديجة، وهو أبو هالة.

إن أسرة أوس بن مخاشن كانت من الأسر الشريفة، وأحفاد أوس بن مخاشن كانوا سدنة شمس، الصنم الذي عبدته ضبّة، وتميم، وعكل، وعدي، وثور[146]، فكسره هند بن خديجة وصفوان بن أسيد، من بني مخاشن[147]، وتزوج صفوان هذا درّة ابنة أبي لهب، فولدت له ولديه عوف والقعقاع[148]، أما مخاشن بن معاوية بن جروة بن أسيد فكان يدعى (ذو الأعواد)[149]، وكان صيفي بن رياح بن الحارث بن حاشن بن معاوية بن جروة بن أسيد، أبو أكثم يدعى (ذو الحلم) أو (ذو

---

(١٤٤) المجلسي: بحار الأنوار ٦/٣٩.

(١٤٥) أبو البقاء: مناقب مخطوط الورقة ٩٦ أ.

(١٤٦) محمد بن حبيب: المحبر ص ٣١٦.

(١٤٧) المصدر السابق، وانظر ابن حجر: الإصابة رقم ٤٠٦٧، ٤٠٧١.

(١٤٨) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٩٩ وما بعدها.

(١٤٩) الهمداني: الأكليل ١/٢ مخطوط الورقة ١٧٨ أ (مخاشن)، محمد بن حبيب: المحبر ص ١٣٤ (ربيعة بن مخاشن) الأنباري: مفضليات ٤٤٧ (ربيعة)، اليعقوبي: تاريخ ١/٢١٤ (مخاشن)، الفرزدق: الديوان ص ٥٠٣ رقم ٢، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤٢٧/٣.

الأوبار[١٥٠]، (بسبب قطعان الإبل الكثيرة التي كان يمتلكها)، وكان ربيعة بن مخاشن ووالده مخاشن من المبجلين (حكام العرب)[١٥١].

أما صلصل الذي يعزى إليه إنشاء نظام (المحرمين – الذادة)، فكان على صلة وثيقة جداً بمكة، كان له (الموسم) وقضاء عكاظ[١٥٢].

إن الواجبات المعهود بها إلى تميم في مكة، وفي أسواق مكة، دليل مقنع على الدور المهم الذي لعبته تميم في ترسيخ قوة مكة الإقتصادية.

كانت تميم مقلدة سلطة (الإفاضة) في مكة نفسها، مع الإشراف على سوق عكاظ.

كانت عكاظ إحدى الأسواق المهمة، لأن الرأي القبلي السائد هنا يستطيع أن يعبر عن نفسه في أدبه، وسياسته، وأشكاله الاجتماعية[١٥٣].

إن مشاركة تميم في سوق عكاظ وتعاونها، قد ساعد قريشاً في أن تتفادى المنافسة، وتؤمن لها النفوذ في هذه الأسواق[١٥٤].

---

[١٥٠] الهمداني: المصدر السابق، ابن الأثير: المرصع ص ٨٢ (تنسب لأكثم أيضاً).

[١٥١] محمد بن حبيب: المحبر ص ١٣٤، العسكري: جمهرة الأمثال ص ١٠٤.

[١٥٢] محمد بن حبيب: المحبر ص ١٨٢.

[١٥٣] قارن المرزوقي: الأمكنة: ٢/١٦٥، ١٧٠، المرزوقي: شرح الحماسة ص ١٥١٤، وقارن:

Wellhausen: Reste, p. 84-86.
Ruhl: Das leben Muhammeds, pp. 49-50, 105.

[١٥٤] يبدو أن رأي راثجنس:

Rathjens: Die pilgerfahrt p. 70.

لقد حدد ابن حبيب مشاركة تميم في نظام المكيين على الوجه الآتي: (كان قادة (أئمة) القبائل (بعد عامر بن الظرب) في الموسم، وقضاتهم في عكاظ، هم بنو تميم، وكان الممثلون الحازمون للدين هم بنو مالك بن كنانة)[١٥٥].ويعطي ابن حبيب قائمة بأسماء رؤساء تميم الذين اجتمع لهم الموسم والقضاء في عكاظ وهم:

١- سعد بن زيد مناة بن تميم.

٢- حنظلة بن زيد مناة بن تميم.

٣- ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم.

٤- مازن بن مالك بن عمرو بن تميم.

٥- ثعلبة ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة.

٦- معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم.

٧- الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة.

٨- صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد.

بأن هناك منافسة بين سوق مكة وسوق عكاظ لا يستند إلى أساس.

[١٥٥] محمد بن حبيب: المحبر ص ١٨١ وما بعدها، كان بنو مالك ابن كنانة من عشيرة المنسيء.

٩- سفيان بن مجاشع، وكان سفيان آخر رجل اجتمع له الموسم والقضاة بعكاظ.

فمات سفيان، فافترق الأمر، فلم يجتمع الموسم والقضاء لأحد منهم حتى جاء الإسلام، فكان محمد بن سفيان يقضي في عكاظ، فصار ميراثاً لهم، فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل إلى الإسلام، هو الأقرع بن حابس بن عقال ابن محمد بن سفيان بن مجاشع.وأجاز بالموسم بعد صلصل، العلاق بن شهاب بن لأي من بني عوافة بن سعد[١٥٦].وكان آخر رجل يجيز بأهل الموسم في الجاهلية (عند ظهور الإسلام) هو كرب بن صفوان[١٥٧].

ويقدم البلاذري في رواية ابن كناسة جريدة بأسماء قضاة تميم، وهي مطابقة تقريباً لجريدة المحبر[١٥٨]، وهي تطابق أيضاً جريدتي

---

[١٥٦] إن زينب بنت علاق بن شهاب بن عمرو من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة، كانت جدة عمر بن عبد العزيز، أنظر ابن حبيب: المحبر ص ٢٧، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٩ ب، وابنه عتاب (بن العلاق) أخذ عطاء ال ٢٥٠٠ درهم من عمر، البلاذري: المصدر السابق الورقة ١٠٥٠، ابن الكلبي: الجمهرة مخطوط الورقة ٨٣أ، وكان علاق قد قال إنه آمن بالله وبيوم البعث، الشهرستاني: الملل ص ٤٣٩.

[١٥٧] أنظر ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ٨١ أ، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٠٨، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٤ أ، كان ضمرة بن جابر بن نهشل قد تزوج ابنته هنداً، الضبي: أمثال العرب ص ٨.

[١٥٨] البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٤، لكن مازناً متبوع بمعاوية بن شريف، وصلصل متبوع بعلاق.

النقائض[159]، وأمكنة المرزوقي[160]، وينقل ابن حزم في فصل ساقط من طبعة ليفي بروفنسال[161]، أن تميماً أعطيت القضاء في عكاظ و (الإفاضة)، بعد أن كانا بيد عدوان، وكان آخر بني عدوان عامر بن الظرب وأبي سيارة.

وآخر رجل قام بوظيفة الإفاضة عند ظهور الإسلام كان كرب بن صفوان، وآخر قاض كان الأقرع بن حابس.لقد ورثت واجبات (الرمى) و(النفر) و(الإجازة) من صوفة، كما يقرر ابن حزم.ويشيد الشعراء التميميون في قصائدهم بالواجبات التي قضتها تميم، فالفرزدق يفتخر بواجب (الحكم) الذي قام به أحد اجداده:

وعمي الذي اختارت معد ... على الناس إذ وافوا عكاظ بها معا
هو الأقرع الخير الذي كان ... أواخى مجد ثابت ان ينزّعا[162]

وكذلك فاخر جرير بوظيفة القضاء:

ونحن الحاكمون على قلاخ ... كفينا ذا الجريرة والمصابا[163]

---

[159] النقائض ٤٣٨: ثعلبة بن يربوع يتبع بمعاوية بن شريف، ولكن معاوية بن شريف متبوع بجروة بن أسيد، وذلك خطأ واضح، إقرأ إلى (ثم: ابن).

[160] المرزوقي: الأمكنة ١٦٧/٢.

[161] حمد الجاسر: نظرة في كتاب جمهرة أنساب العرب مجلة المجمع العربي – دمشق ١٩٥٠ ص ٣٤٨ وما بعدها.

[162] الفرزدق: الديوان ص ٥٠٢ ط الصاوي.

[163] جرير: الديوان ص ٦٧، النقائض ص ٤٣٧.

هناك اختلاف في الرواية: ونحن الحاكمون على عكاظ[١٦٤].

وهناك بيت لحسان بن ثابت له دلالته الهامة، يشير فيه إلى واجبات تميم في الأسواق:

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى ردافتنا عند احتضار المواسم[١٦٥]

هذا البيت هو الرابع عشر من قصيدة لحسان إذ كان يجيب على قصيدة وفد تميم، حين قدم مكة لمقابلة النبي سنة ٩ هـ، لقد حلل عرفات القصيدة[١٦٦]، واستنتج أن هذه القصيدة على الرغم من نسبتها إلى حسان، نظمت في الحقيقة من قبل أحد الأنصار في حقبة متأخرة.

ولسوء الحظ أن عرفات لم يحلل هذا البيت، واستنتاج عرفات، مع أنه غير مقبول حتى الآن، فإن البيت له أهميته، فيؤخذ على فرض أن هناك شاعراً أنصارياً مهتماً بهجاء تميم – أنه لم يتذكر هذه العلاقة بين مكة وتميم، في العصور المتأخرة حين صارت قريش محترمة جداً في المجتمع الإسلامي – إن (ردافة) قريش لم تكن سبّة.يلاحظ عرفات أن قصيدة حسان (تنقسم بوضوح على قسمين)، الأبيات الثمانية الأولى فخر واعتزاز في أول شخص جمع بجدارة الأسلوب نفسه الذي تميزت به

---

[١٦٤] أنظر النقائض ص ٤٣٨، جرير: الديوان ص ٦٧، ياقوت: بلدان (قلاخ).

[١٦٥] حسان: الديوان ص ٣٨٥ (ط البرقوقي).

[١٦٦] وليد عرفات:

W. Arafdat: "An interpretation of the different accounts of the visit of the Tamim delegation to the prophet A.H.g " BSOAS 1955 PP. 416-25.

قصائد الأنصار المتأخرين، وبعضها ينسب لحسان. وأما الأبيات الستة المتبقية فتهديد وسباب موجه إلى بني دارم[١٦٧]. نحن لا نعني هنا بالأبيات الثمانية من القصيدة التي احتوت مديح الأنصار، وتأكيد مساعدة الأنصار للنبي .

ربما كان عرفات على حق في افتراضه أن هذه الأبيات كانت قد نظمت من قبل أنصاري من جيل متأخر، ولكن لماذا يقذف هذا الأنصاري المتأخر تميماً بهذا الشكل العنيف.

ومن البداية، ربما يلاحظ أحد أن الأبيات الستة لقصيدة حسان (٩-١٤)، هي جواب عن قصيدة للزبرقان بن بدر[١٦٨]، يمدح الزبرقان في أربعة أبيات قبيلته ويذكر مآثرها.

وتشكل أبيات حسان في الحقيقة جواباً (نقيضة) لأبيات الزبرقان، إن بيت حسان المذكور آنفاً يصلح جواباً للبيت الأول من قصيدة الزبرقان.

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا   اذا احتفلوا عند احتضار المواسم

يبدو أن البيت يشير إلى الواجب الذي تؤديه تميم في الأسواق.

---

[١٦٧] المرجع السابق ص ٤٢٢.

[١٦٨] ابن هشام: السيرة ٢١١/٤، استشهد المرزباني ببيتين: معجم الشعراء ص ٢٩٩، ونسبهما إلى عطارد بن حاجب (نسبا كذلك إلى الأقرع بن حابس).

إن جواب حسان - دفاعاً عن النبي - صريح: ما أنتم إلا (أرداف) لنا في الأسواق، وذلك أقصى فضل استطعتم بلوغه.

لقد كان من الأفضل أن يوضع هذا البيت بعد البيت العاشر من القصيدة، وبذلك تجتمع ثلاثة أبيات يدحض فيها حسان مزاعم تميم بالفضل.

وتكون الأبيات الثلاثة الأخرى (١١-١٣) وحدة في التهديد على اعتناق الإسلام. إن الهجاء القاسي في أبيات حسان ليس غريباً، لقد كان حسان معروفاً بذكر سقطات مناوئيه وفشلهم في الحروب وضعة الأنساب، يذكر ذلك في شعره دفاعاً عن النبي[١٦٩].

يفند عرفات صحة أبيات حسان ويلاحظ: (إلا أنه على أية حال من المشكوك فيه أن تتفق هذه الأبيات مع أخلاق النبي وهو ذلك السياسي العظيم بأن يسمح بمثل هذا الهجاء والتهديد ليكون موجهاً في مثل هذا الموقف ضد وفد مشهور لقبيلة عظيمة)[١٧٠].

قد تكون حجة عرفات مقبولة، ولكن هناك رواية ربما تعطي جواباً معقولاً للسؤال الذي طرحه عرفات، فطبقاً لرواية جاءت في

---

[١٦٩] الذهبي: "سير أعلام النبلاء: ٢/٣٧٦، الزرقاني: شرح المواهب ٣/٣٧٦.

[١٧٠] عرفات: المرجع السابق ص ٤٢٣.

السيرة الحلبية[١٧١]، كانت هناك مفاخرة بين الأقرع التميمي[١٧٢]، وبين حسان، حيث كان الرسول حاضراً.

أنشد الأقرع قصيدته وأجاب حسان بنقيضته.

وحين سمع النبي قصيدة حسان قال للأقرع: (لقد كنت غنياً أن تذكر بأمور أنت تعلم أن الناس قد نسيتها).

وكلام النبي هذا – كما يقول الكلبي – كان أشد وقعاً على الأقرع من أبيات حسان.وليس من الغريب أن هذا البيت الرابع عشر لحسان كان قد حذف من المصادر المتأخرة، وأن واجب تميم قد نسي أيضاً، وما كان يذكر إلا من قبل شعراء تميم فقط في صدر الإسلام.

إن الأسواق القديمة كان قد أنهى وجودها، وأن البيت لا يمكن أن ينتفع به في مجال المفاخرة أو الهجاء.ويقدم الشرح الحديث للبرقوقي التفسير الآتي، يقول حسان: (خير لكم أن تسلموا إذ لو أنتم أسلمتم لكان لكم الشرف الأعلى لأنكم ستكونون معنا في جميع المحافل وهذا خير ما تسعون إليه)[١٧٣].

---

(١٧١) الحلبي: إنسان العيون ٣/٢٢٨-٢٢٩.

(١٧٢) أن الأكثر قبولاً أن تكون أبيات الشاعر التميمي منسوبة إلى الاقرع أو عطارد بن حاجب، ومن المقبول جداً أن الزبرقان السعدي كان قد مدح دارماً: (وأن ليس في أرض الحجاز كدارم)، وقد وجهت أبيات حسان أيضاً إلى دارم: (بني دارم لا تفخروا).

(١٧٣) حسان: الديوان ص ٣٨٥.

إن من الصعوبة أن يقبل هذا الشرح، فإن (وأفضل ما نلتم) لا يشير إلى المستقبل، بل إلى الماضي، لقد كان البيت هجاء في زمن حسان سنة ٩هـ: ما أنتم إلا أرداف لنا (لقريش) في الأسواق.

البيتان ١١-١٢ من القصيدة (البيت الثالث من القسم الثاني) يصف موقفاً حقيقيا: (إذا جئتم لتحفظوا أنفسكم فلا تقتلوا، وأموالكم فلا تغنم وتقسم على المجاهدين، فلا تجعلوا لله شريكاً وأسلموا ولا تلبسوا زيّا كزيّ الأعاجم...)[١٧٤].وبيان الحال في هذه الأبيات ذكر بوضوح في أبيات للفرزدق.

إن قول حسان بأن الأسرى التميمين يمكن أن يباعوا في الأسواق، – لا يمكن أن يعتبر خالياً من التهديد – يفاخر الفرزدق بدارم قائلاً:

وعند رسول الله إذا شدّ قبضه   وملِّيء من أسرى تميم أداهمه

فرجنا عن الأسرى الأداهم بعدما   تخمّط واشتدّت عليهم شكائمه[١٧٥]

وفي قصيدة أخرى يؤكد الفرزدق أن سراح الأسرى كان ناتجاً عن شفاعة الأقرع لهم عند النبي:

وعند رسول الله قام ابن حابس   بخطة سوّار إلـى المجد حازم

له أطلق الأسرى التي في حباله   مغلّقة أعناقها فــي الأداهم

---

[١٧٤] عرفات: المرجع السابق ص ٤٢٣.

[١٧٥] الفرزدق: الديوان ص ٧٦٧، النقائض ٧٤٨.

كفى أمهات الخائفين عليـــــهم علاء المفادى أو سهام المساهم[١٧٦]

وفي رواية عن الكلبي (تصلح شرحاً لهذه الأبيات)، تفيد بأن الأقرع تشفّع في أسرى بني عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، ووعد بدفع الفدية نيابة عن قومه[١٧٧]، ويبدو أن أشعار حسان في تميم صحيحة.

وربما يتفق المرء مع عرفات حول ركة أبيات حسان هذه، ولكن هذا لا يقوم برهاناً كافياً بأن هذه الأبيات ليست من نظم حسان، إن أمثال هذه الأبيات ليست غريبة على الهجاء السياسي.

إن مشكلة وفد تميم تستحق أن تعالج على إنفراد، فإن الواجبات المتوارثة لتميم في السوق والتي نوقشت فيما سبق كانت قد أكملت بالواجبات المهمة التي أديت من قبل أقرباء تميم خلال مواسم الحج.

تقدم سيرة ابن هشام الرواية التالية حول وظائف زعماء تميم في مواسم الحج:

(كان الغوث بن مرّ بن أد بن الياس بن مضر يلي الإجازة بالناس في الحج من عرفة، وولده من بعده، وكان يقال له ولولده من بعده صوفة، وإنما ولى ذلك الغوث بن مرّ لأن أمه كانت امرأة من جرهم،

---

[١٧٦] الفرزدق: السابق ص ٨٦٢، النقائض ص ٧٤٧: (مغللة أعناقها).

[١٧٧] نقائض ص ٧٤٧ هناك روايات أخرى: (أو سهام المقاسم)، تشبه كثيراً تعبير بيت حسان.

وكانت لا تلد، فنذرت أن هي ولدت ولداً أن تصدّق به على الكعبة عبداً لها، يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم.

فولى الإجازة بالناس من عرفة، لمكانه الذي كان به من الكعبة وولده من بعده حتى انقرضوا.

فقال مرّ بن أدّ مشيراً إلى وفاء نذر امه:

إني جعلت ربّ من بنيّه

ربيطة بمكة العليّه

فباركن لي بها أليه

واجعله لي من صالح البرية

وكان الغوث بن مرّ – فيما زعموا – إذا دفع بالناس قال:

لاهم إني تابع تباعه

إن كان أثم فعلى قضاعه

روى يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه قائلاً: كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجيز بهم إذا نفروا من منى، فإذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار، ورجل من صوفة يرمي للناس، لا يرمون حتى يرمي، فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له: قم فأرم حتى نرمي

معك، فيقول: لا والله حتى تميل الشمس، فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة، ويستعجلونه بذلك، ويقولون له: (ويلك قم فأرم) فيأبى عليهم، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى، ورمى الناس معه.فإذا فرغوا من رمي الجمار وأرادوا النفر من منى، أخذت صوفة بجانبي العقبة، فحبسوا الناس وقالوا: أجيزي صوفة، فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا، فإذا نفرت صوفة ومضت خلّى سبيل الناس، فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقرضوا.فورثهم ذلك من بعدهم بالقعدد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، وكانت من بني سعد في آل صفوان بن الحارث بن شجنة، وكان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذي قام (ع)، كرب بن صفوان.وقال أوس بن تميم بن مغراء السعدي:

ولا يرمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صفوانا[١٧٨]

إن أبيات ابن مغراء كثيراً ما يستشهد بها، وأهمية واجب كرب بن صفوان تتواتر[١٧٩]، وهذا البيت لأوس بن مغراء ذو دلالة وأهمية أيضاً:

---

[١٧٨] ابن هشام: السيرة ١٢٥/١ وما بعدها، ترجمة هذه الفقرة المستشهد بها كلها أخذت من:

قران ابن كبش البداية ٢٠٦/٢

Guillaume: The life of Muhammad p. 49-50.

[١٧٩] المبرد: نسب عدنان وقحطان ص٩، محمد بن حبيب: المحبر ص ١٨٣، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٠٤٤، القالي: أمالي ١٧٦/٢، البكري: سمط ص ٧٩٥-٧٩٦،

ترى ثنانا إذا ماجاء بدأهم وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا[180]

وقد ذكرت إجازة الصوفة في أبيات مرة بن خليف:

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولها قتار فوقه سفع الدم

رأيت الأيـــاب عاجلاً تبعثـت علينا دواع للرباب وكلثم[181]

ويفتخر شاعرا تميم جرير والفرزدق بإجازة قبيلتيهما[182]، من مكة، ويعد بيت الفرزدق حول إجازة تميم أفخر بيت:

ابن قتيبة: الشعر ص ٢٦٤، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٢٢٢ ، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٣/٤٢٦، ابن ولاد: المقصور والممدود ص ٢٤.

[180] لسان العرب (ثنى).

[181] المرزباني: معجم الشعراء ص ٣٨٢.

[182] تقرر الرواية أن صوفة كان سليل الغوث بن مر (يدعى الربيط، أو صوفة) نقل الرواية ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ٦٠أ، وقد بادوا، محمد بن حبيب: مختلف القبائل ص ٩، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٥٦ب ابن قتيبة: المعارف ص٣٤ (الغوث بن مر صاروا باليمن ويقال لها صوفة) الكلابي: الاكتفاء ١/١٣٢ وما بعدها، وأنظر ولها وزن . Reste p. 77

كايتاني: حوليات ١/١٠٥، هناك روايات مختلفة حول صوفة، ينقل الأزرقي: أخبار مكة ١/١٢٨: كانت الإفاضة في الجاهلية إلى صوفة، وصوفة رجل يقال له أخزم بن العاص من بني مازن بن الأسد، وكانت للغوث بن صوفة وامه امرأة من جرهم الإفاضة بالناس على الموقف، جعلها إليه حبشية بن سلول من خزاعة، وكان حبشية يومئذ يلي حجابة الكعبة وأمر مكة، ثم صارت الإفاضة في عدوان بن عمرو بن قيس عيلان إلى زيد بن عدوان في زمن قريش، حتى كان الذي قام عليه السلام أبو سيارة.

إذا هبط الناس المحصّب من منى عشيّة يوم النحر من حيث عرّفوا

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا[183]. ويقول جرير:

وجوّاز الحجيج لنا عليكم وعاديّ المكارم والمنار[184].

ويقول العجّاج واصفاً جمع الحجيج:

حتى إذا ما حان فطر الصوم أجاز منا جائز لم يوقم[185].

يسجل المقدسي (كتاب البدء ١٢٧/٤) أن صوفة كانوا جماعة من جرهم أعطوا حق الإجازة، وقد دحروا في معركة مع قصي.

يذكر أن الإجازة كانت أولاً في عهدة ناس من خزاعة ثم انتقلت إلى عدوان، ثم صارت إلى أبي سيارة، وأخيراً صارت الإجازة إلى الغوث بن مر بن أد (البلدان (ثبير).

ويذكر ياقوت في فقرة أخرى أن قبيلة من جرهم اسمها صوفة بقيت بمكة تلي الإجازة بالناس من عرفة مدة، وفيهم يقول الشاعر:

ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

(ياقوت: البلدان (مكة)، وقد انتقل هذا الامتياز إلى خزاعة، ثم تحول أخيراً إلى عدوان (أبي سيارة)، ثم عزل قصي أبا سيارة وقومه، وطبقاً لرواية السجستاني (المعمرون ص ٥١) إن صوفة يقوم بالإجازة يوماً، وفي اليوم الآخر تؤدي من قبل عدوان (أنظر المصدر السابق ص ٣٤).

[183] ابن رشيق: العمدة ١٣٧/٢، العسكري: ديوان المعاني ٧٨/١، الفرزدق: ديوان ص ٥٦٦ (ط الصاوي)، هناك خطأ مطبعي: أومأنا إلى النار، بدلاً من : إلى الناس) ولكن القالي: الأمالي (ذيل ١١٩ وما بعدها) وابن رشيق: العمدة ٢٦٩/٢.

[184] جرير: ديوان ص ٢٩٨.

[185] العجاج: ديوان ص ٦٠ ط أهلوارد.

تعين أشعار الشعراء التميميين السابقة بوضوح التعاون بين قريش وتميم، وفي الحقيقة أن قريشاً قلدت تميماً وظيفتين كبيرتي الأهمية في دينهم وحياتهم الإقتصادية: (الحكومة) و (الإجازة)[186]، ويدل هذا على أن تميماً كانت في الحقيقة قوية وذات نفوذ، وقد قدمت لمكة خدمات عظيمة الأهمية.

إن إشارة ولهاوزن بأن منح الإجازة إلى صوفة (وأخيراً إلى تميم – ك) يرى بأن مكة لم تكن مركزاً للحج[187]، يبدو أن هذا الرأي غير مناسب. فقد تخلت قريش عن حقها، أو وظفت عشائر ببعض الواجبات في منطقتها، أو في المناطق التي تجد قريش أن نفوذها فيها مهماً (الأسواق)، لأنهم استطاعوا عن هذا الطريق أن تكون سيطرتهم أكثر حيوية ونفوذاً في القبائل، ويحصلوا على الأمن في أراضيهم.

وقد كان هناك سابقة لهذا الأسلوب، فكان هذا المبدأ مطبقاً سابقاً من قبل حكام الممالك التي على الحدود[188].

---

(١٨٦) أنظر في الإجازة:

Von Grunebaum: Muhammadan p. 32-33, Wellhausen: Reste, pp. ٥٧,75-80.

وانظر حول (أشرق ثبير) أبا مسحل: نوادر ص ٤٥٢، وانظر لسان العرب (ثبر، شرق).

(١٨٧) ولهاوزن:

Wellhausen: Reste, p. 77.

(١٨٨) قارن ابن حبيب: أسماء المغتالين (نوادر المخطوطات ٦/٢٢١ ط هارون) ولكن ربما يقرأ (مليك) وليس (ملك) أي ليس بالملك التام.

وحول إسناد الواجبات في السوق، نستطيع أن نقيس ذلك من فقرة ذات دلالة جاءت في كتاب الأمكنة للمرزوقي[189]: (وكان أشراف العرب يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف لكل شريف بسهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ، فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوب).وتقدم هذه الفقرة فكرة عن العلاقات بين الحكام ورؤساء الأعراب، فقد كانوا يعطون بعض الحصص من الأرباح، وكان هذا الموقف واضحاً في دومة الجندل، وفي هجر، وفي صحار، وفي دبا، وفي الأسواق الأخرى التي كانت تحت سيطرة حكام موالين للمهالك، حيث تجبى فيها الضرائب (الأعشار)، وبالطريقة نفسها قلدت قريش تميماً، وجعلت لها أمر القيادة في سوق عكاظ.ولكن ما كان هذا قائماً على المكافأة الزهيدة، فقد كانت عكاظ سوقاً حرة، لا تدفع فيها الضرائب، وليس لدينا إشارة إلى هذه المكافأة كيف كانت؟

إن تعبير (أئمة العرب) يشير إلى مبدأ التعاون المشترك، وكأساس فكري فإنه يخدم مبدأ إحترام حرمة مكة والأشهر الحرم، ومن الواضح أن رضا القبائل كان ضرورياً لتأدية هذا الواجب.

إن السيطرة على الأسواق والإجازة مهمة وضرورية ليست للقبائل وحسب، بل كانت من مصلحة بعض الحكام أيضاً.

---

(189) المرزوقي: الأمكنة ٢/١٦٦.

يمكن أن يستنتج هذا من رواية هامة رواها السهيلي: (وقال بعض نقلة الأخبار إن ولاية الغوث كانت من قبل ملوك كندة)[190]، وقيل إن بني الغوث هؤلاء رحلوا إلى اليمن[191].

إن الروايات التي تذكر هجرة الغوث بن مرّ إلى اليمن تشير بوضوح إلى صلاتهم بجنوب الجزيرة العربية، وطبقاً لرواية، إنه بعد هلاك الصوفة آلت الولاية إلى صفوان بن الحارث بن شجنة من سعد، إذ ورثها أقاربه من بعده: (فورثهم ذلك من بعدهم بالقعدد).وربما يتذكر أحد أن هذه الأسرة كان لها علاقة وثيقة بآل كندة.

كان عوير بن شجنة الذي آوى بعض الأفراد المنهزمين من آل كندة، وكان قد مدح من قبل امرىء القيس.وكان كرب بن صفوان الذي رفض أن ينضم إلى العشائر الأخرى من تميم في حربهم ضد عامر بن صعصعة الذي يدين بالحمس، في معركة جبلة، وقد يجازف أحد فيفترض أن هنالك شيئاً من الصدق في هذه الرواية.

لقد تعاونت كندة مع قريش في حماية القوافل[192]، ومن الراجح أنه كان لهم تأثير على الأقل في تعيين الرجل أو القبيلة التي تلي الإجازة.

---

[190] السهيلي: الروض الأنف ١/٨٤ وما بعدها.

[191] أنظر ما سبق بحثه حول الغوث من مر.

[192] قارن محمد بن حبيب: المحبر ص ٢٦٧ حول سوق الرابية في حضر موت: (فكانت قريش تتحفز فيها ببني آكل المرار من كندة، وساد بنو آكل المرار بفضل قريش على سائر الناس).

إن شاعراً وزعيماً من بني سعُد هو الزبرقان بن بدر قال يلوم رجلاً كان قد هجا أبا جهل:

أتدري من هجوت أبا حبيب سليل خضارم سكنوا البطاحا

أزاد الركب تذكر أم هشاماً وبيت الله والبلد اللقاحا[١٩٣]

يعبر هذان البيتان عن الصدق والاحترام للارستقراطي القرشي أبي جهل والولاء لمكة.

إن فرع تميم الذي عهدت إليه ولاية القضاء في عكاظ كان في بني مجاشع من دارم، العشيرة التي لها نفوذ في بلاط الحيرة[١٩٤]. والرواية التي نوقشت في هذا البحث تعطينا فكرة تقريبية عن كيفية ارتباط عشائر تميم بمكة، لقد ارتبط بعضها بنظام الحمس، وبعضها بعهود الإيلاف، وبعضها بالحصول على امتيازات في الأسواق، وتأدية فروض الحج، وبعضها بالاشتراك بالجيش القبلي لحراسة مكة.

ومن المقبول أن نجد في مكة رجالاً من تميم حلفاء لقريش، وأن يزوّج زعماء تميم بناتهم لرؤساء الأسر المكيّة، هذه الحقيقة ربما تستوجب التأكيد.

---

[١٩٣] ياقوت: بلدان (مكة).

[١٩٤] أنظر:. Oppenheim- Caskel: Die Beduinen III, 166

فطبقاً لبعض الروايات أن قريشاً كانت تمتنع من التزوج ببنات القبائل الأخرى، فكانت تماضر بنت الأصبغ الكلبي، زوج عبد الرحمن بن عوف، أول امرأة كلبية تزوجت من قرشي، فلم تكن قريش تتزوج من كلب(١٩٥)،أما حول أسرة تميم، فتؤكد الرواية أن قريشاً ارتبطت بالزواج مع هذه الأسرة(١٩٦).

فقد كانت زوج هشام بن المغيرة الشريف المخزومي هي أسماء بنت مخرّبة بن جَنْدَل بن أبَيْر نهشل بن دارم أم أبي جهل المشهور، وكانت كذلك أم عبد الله بن أبي ربيعة وعياش بن أبي ربيعة(١٩٧).وتزوج عيّاش بن أبي ربيعة(١٩٨)، أسماء بنت سلامة بن مخرّبة بن جندل(١٩٩).

---

(١٩٥) المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٢٦٧، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ٩٥ب.

(١٩٦) البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٨٩ب: (كان شريفاً وقد نكحت إليه قريش..).

(١٩٧) ابن الكلبي: جهرة مخطوط الورقة ٣٦أ، الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص ١٢٣، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١٣٥أ، ١٤٠ب، المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٣٠١، ٣٠٧، الواقدي: مغازي ص ٨٣-٨٤، أبو الفرج: الأغاني ١/ ٢٩ وما بعدها، نقائض ص ٢٠٧، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٩٨٦ب، ٨٠٤أ، ابن عبد البر: الاستيعاب ص ٤٩٥، البلاذري: أنساب ١/ ٢٩٨، ٢٠٩، ٢٣٥، ابن حجر: الإصابة ٨/ ١٠ (رقم ٥٥ نساء).

(١٩٨) أنظر حوله ابن حجر: الإصابة رقم ٦١١٨.

(١٩٩) ابن هشام: سيرة ١/ ٢٧٣، ابن عبد البر: الاستيعاب ص ٧٠٥، المصعب الزبيري: نسب قريش: ص ٣١٩،٢٦٧، الزبير بن بكار نسب قريش مخطوطة الورقة ٩٦ أ.

وتزوج عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة هنداً بنت مطرّف بن سلامة بن مخرّبة[٢٠٠]. وتزوج عبد الله بن أبي ربيعة ليلى ابنة الزعيم التميمي عطارد بن حاجب بن زرارة[٢٠١]. وتزوج أبو جهل ابنة عمير بن معبد بن زرارة[٢٠٢]. وتزوج عبيد الله بن عمر بن الخطاب أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة[٢٠٣]. وتزوجت خولة بنت القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، طلحة بن عبيد الله، كان زواجها الثاني من أبي جهم بن حذيفة[٢٠٤]. وتزوجت ليلى بنت مسعود بن خالد بن مالك بن ربعي بن سلمى بن جندل بن نهشل، علي بن أبي طالب، وكان زواجها الثاني من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٢٠٥].

---

[٢٠٠] المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٣١٩، ابن سعد: طبقات ٢٧/٥.

[٢٠١] المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٣١٨، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١٤١أ، ابن احجر: الإصابة ١٨٢/٨، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٨٠٤ب.

[٢٠٢] المصعب الزبيري: المصدر السابق ص ٣١٢، الزبير بن بكار: السابق مخطوط الورقة ١٣٥ب.

[٢٠٣] الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص ٤٨٨ رقم ٣.

[٢٠٤] الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١١٨أ، المصعب الزبيري: نسب قريش ص ٣٧٢، ٢٨١، ابن حجر: الإصابة ٧١/٨ (رقم ٣٧١) ابن سعد: طبقات ١٥٢/٣، ١٢٠/٥، ١٤٧/٦.

[٢٠٥] ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ٩أ: البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٥٣أ، المصعب الزبيري: المصدر السابق ص ٤٤، ٨٣، ابن حجر: الإصابة رقم ٨٤٠٤، ابن سعد: طبقات ١٩/٣.

وتزوج عقيل بن أبي طالب ابنة سنان بن الحوتكية من بني سعد بن زيد مناة[٢٠٦].أما بنات الزبرقان بن بدر فقد تزوجن من: سعد بن أبي وقاص، المسوّر بن مخرمة الزهري، عامر بن أمية الضميري، الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد الشمس، عثمان بن أبي العاص، الحكم بن أبي العاص، أمية بن أبي العاص[٢٠٧].وكان أمية الأصغر، وعبد أمية، ونوفل، وأمامة، أولاد عبد شمس ابن عبد مناف، ولدوا من زوجه عبلة بنت عبيد بن جاذل بن قيس بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وكان أحفادهم يدعون (العبلات)[٢٠٨].وتزوج نوفل بن عبد مناف بن قصي فكيهة بنت جندل بن أبير بن نهشل بن دارم[٢٠٩].

وكانت إحدى زوجات المطلب بن عبد مناف بن قصي أم الحارث بنت الحارث بن سليط بن يربوع بن حنظلة ابن مالك بن زيد مناة[٢١٠].

---

[٢٠٦] البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ١٥٤أ، ١٥٠أ.

[٢٠٧] البلاذري: أنساب الورقة ١٠٤٤أ، المصعب الزبيري: السابق ص ١٦٩.

[٢٠٨] ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ١١٦، المصعب الزبيري: السابق ص ٩٨، مؤرج السدوسي: حذف ص ٣٠، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٣٤٥، ٨٠٦، أبو الفرج: أغاني ٨٢/١.

[٢٠٩] المصعب الزبيري: السابق ص ١٩٨، البلاذري: أنساب مخطوط الورقة ٨٠٨أ، (كهيفة بنت جندل – وليس فكيهة)، ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ٢١أ.

[٢١٠] ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ٢٠، المصعب الزبيري: السابق ص ٤٤، ٨٣، ابن حجر: الإصابة رقم ٨٤٠٤، ابن سعد: طبقات ١٩/٣.

وتزوج أمية بن خلف امرأة تميمية هي سلمى بنت عوف، ولدت له علي بن أمية الذي قتل في بدر(٢١١).

وتزوج وهب بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار بن قصي سعدة بنت زيد بن لقيط من مازن بن عمرو بن تميم(٢١٢). وتزوج حرب بن أمية امرأة تميمية(٢١٣). وتزوج نافع بن طارق بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، غنيّة بنت أبي، وكان أبو أهاب حفيد سويد بن ربيعة أهاب بن عزيز بن قيس بن سويد بن ربيعة ابن زيد بن عبد بن درام، الذي قتل ابن ملك الحيرة وهرب إلى مكة، فأصبح حليفاً لنوفل بن عبد مناف(٢١٤). وكان جد غنيَّة عزيز بن قيس قد تزوج فاختة بنت عامر بن نوفل بن عبد مناف(٢١٥). وتزوج أبو أهاب بن عزيز والد غنيّة، درّة بنت أبي لهب عمّ النبي(٢١٦). وتزوجت ابنة أبي أهاب عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس(٢١٧)، وتزوجت حفيدة أبي

---

(٢١١) الزبير بن بكار: السابق الورقة ١٧٦ب، المصعب الزبيري: السابق ص ٣٨٧ وما بعدها.

(٢١٢) الزبير بن بكار: السابق الورقة ٨٨أ.

(٢١٣) المصعب الزبيري: نسب قريش ص ١٢٣.

(٢١٤) المصعب الزبيري السابق ص ٢٠٤.

(٢١٥) المصدر السابق والصفحة، وص ٤٢٠، الزبير بن بكار: نسب قريش مخطوط الورقة ١٨٦أ، أبو البقاء: مناقب مخطوط الورقة ١٥٠ب.

(٢١٦) ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ١١٦ب.

(٢١٧) المصعب الزبيري: السابق ص ١٩٣.

لهب، درّة بنت عتبة بن أبي لهب، تميمياً هو أبو هالة هند بن هند بن أبي هالة حفيد خديجة من زوجها الأول (أو الثاني)[٢١٨].

وتزوجت ابنة نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[٢١٩]، تميمياً هو حنظلة بن الربيع كاتب النبي[٢٢٠]، وهو ابن أخت أكثم بن صيفي[٢٢١].

إن جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالاً من أسر قرشية شريفة لا يمكن إدراكها جميعاً، فيظهر أن هناك عدداً كبيراً من النساء التميميات تزوجن من أبناء الأسر المتميزة في مكة.

وهذا يشير إلى العلاقات الوثيقة بين قريش وتميم، وربما كان المراد من هذه الزيجات تقوية الروابط مع زعماء تميم الذين أسهموا كثيراً في دعم مكانة مكة في المجتمع القبلي.

---

[٢١٨] ابن الكلبي: جمهرة مخطوط الورقة ١١٨ ب.

[٢١٩] أنظر حوله ابن حجر: الإصابة رقم ٨٨٢٧.

[٢٢٠] ابن الكلبي: السابق الورقة ١١٨ أ.

[٢٢١] أنظر حوله ابن حجر: الإصابة رقم ١٨٥٥.